الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الرحمان ميرة بجاية
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

د/ليندة مسالي
أستاذ محاضر قسم ب جامعة بجاية

المطبوعة البيداغوجية
مقياس
"أدب عصر الضعف"
السنة الأولى ماستر: تخصص الأدب العربي الحديث والمعاصر

السنة الجامعية 2020- 2021

مقدّمـة

قدر لي في هذه السنة الجامعية 2021/2020 ضمن قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة عبد الرحمان ميرة بجاية، أن أخوض غمار تدريس مادة **"أدب عصر الضعف"** ضمن البرنامج المقترح للسنة **الأولى ماستر**، تخصص **الأدب العربي الحديث والمعاصر** . وقد قمت خلالها بانجاز مجموعة من المحاضرات القيمة حول المادة، وهي تهدف بالدرجة الأولى إلى الاحاطة بهذه المادة الغزيرة من من جهة والغامضة من ناحية الظروف والملامح العامة التي أحاطت بالعصر من جهة ثانية.

خلالها سيتمكن الطالب من الغوص في الماضي ليعايش أجواء عصر الضعف بقسميه المغول والعثماني، ويتشرب مختلف تلك المعارف التي أنتجت في هذا العصر كما سيجلس إلى تلك الأجواء العلمية والحلقات كي يأخذ منهم الشعر وفنونه وأساليبه ويعرف إلى مدى كان الأدباء خلالها مقلدين أو مجددين في نصوصهم الابداعية، ويبحر في انجازاتهم الموسوعية والنثرية .

والبرنامج يضم تقريبا ثلاثة عشر محاضرة، لكننا راعينا في اختيار المحاضرات الثمانية الاختلاف والتنوع والقدر الساعي بقدر يمكن الطالب من الاحاطة بالعصر ومعالمه الكبرى ويسافر عبر أقاليمه المتوترة، ليستمتع بكافة أغراضه الشعرية التقليدية والمستحدثة لننهي المحاضرات باختيار نماذج نثرية من الرسائل والخطب السائدة.

كانت **المحاضرة الأولى** حول الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي ميزت العصر دون أن نغفل عن الجانب العقائدي، ثم انتقلنا بعدها في **المحاضرة الثانية** حسب البرنامج إلى ظاهرة التقليد الذي ميزت ابداعات العصر في جانبه الشعري، تمكنا خلالها من تقديم العديد من الأمثلة الشعرية والخصائص الفنية، دون أن نجزم بكونه التيار الوحيد الذي عرفه العصر.

في **المحاضرة الثالثة** والتي تحمل عنوان الشعر الديني في عصر الضعف آثرنا الحديث عن شعر الايمانيات والزهد الذي كان سمة بارزة في العصر واختلط كثيرا بأحواله، وركزنا فيها تحديدا على المدح النبوي بموضوعاته التي قدمت لك قداسة الأماكن عند المسلمين وشوقهم إلى النبي الكريم، في وقت اشتدت عليهم الأزمات وذاقت بهم سبل العيش إلىآمن، مما اضطرهم إلى الاستنجاد معنويا بالنبي (ص) والإشادة بأخلاقه وفتوحاته.

وعلى النقيض مباشرة تحملنا **المحاضرة الرابعة** إلى الشعر الاباحي الذي ظهر في العصر، أو نقول توسع عند البعض وازداد خلاعة خاصة بعد الاختلاط العميق بين المجتمع الاسلامي وباقي الأجناس البشرية بعد الغزو التتاري، وصولا إلى الدخول العثماني ، ولنحيط بظاهرة التجديد التي تظهر مقدرة الشعراء في تجاوز القديم كانت **المحاضرة الخامسة** حول الفنون المستحدثة في عصر الضعف، ونعني بها تلك الفنون الشعرية الشعبية التي انتشرت في بعض الأقاليم العربية خاصة بغداد ومصر، منها القوما

والدوبيت وغيرها، وتزيدنا **المحاضرة السادسة** بحثا عن ظواهر مستحدثة أخرى ومعرفة أهم خصائص الشعر في عصر الضعف في جانبه الأسلوبي واللفظي، والصور والأخيلة وكذا عنصري الموسيقى والايقاع.

وتركنا المحاضرة السابعة والثامنة لغرض النثر، فقد كانت الكتابة حينها وسائلهم الخاصة للتراسل والتواصل، حتى أن الطبقة الحاكمة كانت تفضل تقريب الكتاب على الشعراء، وتعتبرهم أكثر مرتبة، بعدما توسعت المعارف وغزرت المؤلفات الأدبية العلمية والنثرية، وهذا يعني أن **المحاضرة السابعة** كانت للحديث عن الرسائل الديوانية الاخوانية كي نظهر الموضوعات التي شغلت طبقة الكتاب وأساليبهم البيانية، وأنهينا الحديث في **المحاضرة الثامنة** عن الخطابة على أنواعها، وكنا دائما نقدم نماذج ونصوص لأهم المؤلفين في هذا العصر، وراعينا التنوع الإقليمي قدر الامكان بين الشام ومصر والعراق وايران وشبه الجزيرة العربية دون أن ننسى المغرب العربي في كلا العصرين.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة عبد الرحمان ميرة بجاية.

أستاذ المادة: د/ ليندة مسالي

المقيـــاس: أدب عصر الضعف

السنة الأولى ماستر، تخصص: الأدب العربي الحديث ومعاصر

الأهداف التعليمية: تقديم المادة للطالب ليتمكن من الاحاطة بالعصر من كافة جوانبه أولا ذلك أن الأدب صورة عن المجتمع، لا يمكن فهم نصوصه دون العودة إلى السياق العام الذي أنتجت فيه، ثم التعرف إلى الشعراء وأساليبهم اللفظية والبيانية وأهم أغراضهم الشعرية، وفنياتهم وكذا التعرف إلى أهم المؤلفين والظروف التي ساعت على التأليف وعلى تلك الخصائص التي وصلتنا عن
عصر الضعف والتي عمل الأدباء في عصر النهضة على انتقادها وتجاوزها خاصة الصنعة والتكلف.

طريقة التقييم: يكون عبر مختلف الوسائل المتاحة كالنقاش وطرح الأسئلة التي تصب في جوهر المادة في المدرج، وعن طريق تكليفهم بالبحث عن المعلومات والظواهر إلى جانب التقييم الرسمي الذي يكون عبر الامتحان .

برنامج مقياس

1. الظروف السياسية والاجتماعية لهذا العصر
2. ظاهرة التقليد لدى أدباء عصر الضعف
3. الشعر الديني (المدائح النبوية) في عصر الضعف.
4. الشعر الإباحي في عصر الضعف.
5. الشعر التعليمي في عصر الضعف.
6. الأوزان الشعرية الشعبية في عصر الضعف (المواليا، القوما، الدوبيت)
7. خصائص الشعر في عصر الضعف.
8. الكتابة في عصر الضعف (الزخرفة اللفظية)
9. النثر العلمي في عصر الضعف.
10. المصنفات والمعاجم.
11. الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية في عصر الضعف.
12. الخطابة في عصر الضعف.
13. خصائص النثر في عصر الضعف

مقياس: أدب عصر الضعف

السنة الأولى ماستر، تخصص: الأدب العربي الحديث ومعاصر

المحاضرة الأولى

الظروف السياسية والاجتماعية لهذا العصر

حين يتحدث بعض الأدباء كشوقي ضيف عن عصر الضعف، يؤثر التأريخ له مع عصر الدول والامارات سنة(334ه) إلى غاية العصر الحديث، لكن أغلب المؤرخين يميلون إلى تقسيمه لقسمين، القسم الأول وهو القسم المغولي، ويبدأ من سقوط بغداد بيد هولاكو واجتياح تيمورلنك بلاد الشام ومصر،(656ه-933ه) والقسم الثاني وهم العهد العثماني، ويبدأ منذ انتصار سليم الأول على قانصوه غوري وامتداد سلطانه إلى الشام ومصر، وانتهي بحملة بونابرت على مصر (933ه-1213ه[1]، وسنحاول في هذه المحاضرة أن نتعرف على الملامح العامة السياسية والاجتماعية والثقافية لكلا العصرين مع الاشارة إلى الجانب العقائدي.

1-الظروف السياسية

إن مساحة البلاد العربية امتدت منذ نهاية الفتوحات الاسلامية من شبة الجزيرة العربية إلى الشام والعراق وبلاد فارس، ثم مصر والمغرب العربي والأندلس الاسلامية. نستهل الحديث بشبه الجزيرة العربية ، فهي بلاد" **أكثرها صحاري ودارات ، يغلب عليها الجفاف، تنتابها رياح مختلفة شرها السموم ، ألطفها الصبا، أقسامها الكبرى هي اليمن مهد الحضارة العربية والحجاز ومن مدنه مكة ويثرب وتهامة، ونجد بلاد الخيول العربية المشهورة، واليمامة والبحرين بلد التمر واللؤلؤ**[2] ، لقد ظلت مكة تقام باسم الفاطميين مدة متطاولة الولاء وتارة باسم الخلفاء العباسيين تبعا لما يغدق عليها من أموال وفيرة من بغداد أو القاهرة، وكان يولون من طرف الخلفاء العباسيين حتى اسقاط دولتهم سنة (656ه) وكانت" **مصر بعد ذلك في عهد السلاطين المماليك هي التي توليهم** "[3]. وظلت في العهد العثماني تتبع ولاية مصر أيضا. وكانت المدينة تحت ولاية الفاطميون، يتعقبون ولايتها الواحد تلو الآخر ثم أصبح الأمر بيد المماليك، وساء الأمر أكثر في القرن الثامن هجري وازداد مع الزمنإلى أن دخلت مع الحجاز تحت الحكم

---

[1] - أنظر حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ط2، الطبعة البولسية، بيروت، 1953، ص867.

[2] - المرجع نفسه، ص11.

[3] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة، العراق، ايران، ط2، دار المعارف، 1980، ص14.

العثماني[1]. أما اليمن فقد كانت دول كثيرة أقدمها دولة بني زياد، وتتالي عليها الدولة الأيوبية والرسولية والزيدية، بينما عرفت عدن وصنعاء مناوشات في عهد المماليك والدولة العثمانية و انقسامات وفتن داخلية.

يعد **العراق** من البلدان العربية التي كانت معلما هاما في تاريخها السياسي والثقافي، وقد كانت عاصمة الخلافة العباسية لقرون، لكن في آخر عهدها المعتصم بالله كان يشاركها في الحكم "**الدولة السلجوقية في فارس والخوارزمية في خوارزم، والاسماعيلية في أصبهان والروم السلاجقة في ارمينية والانابكية في الموصل والأيوبية في مصر والشام** "[2] . وسرعان ما أخذ سيل المغول* يتعاظم في عهده ويكتسح خوارزم وايران وامتدت سيوله إلى ديار بكر والجزيرة، ولم يقوى المعتصم بالله أن يتحدى هولاكو فسقطت بغداد بعدما نكل بأهلها وخرب مساجدها وقصورها.

ثم ظهر قائد الموجة الثالثة تيمورلنك، وقد كان " **أشد هولاً من الأولين...واكتسح آسيا الصغرى وامتدت أياديه إلى الشام التي سلمت قيلا، حيث قضى على خيرة رجالها ، وأضحت البلاد العامرة خرابا والمكاتب طعمة للنار**" [3] ، لقد أصبحت بلاد ما وراء النهر كلها تحت قبضته بعدما استولى على خراسان وبلاد فارس وأذربيجان وموسكو والهند. بعدها عاد إلى الديار الشامية وخربها بعد بغداد حتى امتلأت الطرق بالقتلى. ، وفي هذا السياق يقول أحمد بدوي: "**مضى العدو المغتصب يبث الرعب في نفس أبناء البلاد وينشر الذعر في القرى والمدن، فلاقت المدن المفتوحة على يده أهول ما عرف من ألوان التخريب والتدمير، ونال سكانها أقسى ما يستطاع من القتل والذبح والاحراق**[4].

وحين حاول الدخول إلى مصر لقيه الجيش المصري بقيادة قلاوون وهزمه. عموما ، تعاقب على المغول قادة كانت لهم يد في سفك الدماء مثل أرغون وكيختو، ممنهم من أسلم مثل **بوكدار بن هولاكو** الذي حسن اسلامه **وغازان بن أرغون** سنة(694ه) الذي

---

[1] - أنظر المرجع نفسه، ص15-17

[2] - محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في مصر "العصر المملوكي والعثماني"،دط، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1984، ص8.

*المغول قبائل رحل كانت تستوطن منغوليا. قرر جنكزخان ان يجمعها تحت لوائه ويفتح بها الصين وبكين ثم استولى على فارس616 ه وبعدها تواصلت سلسلة الحملات التي قاموا بها . اما المغول فنسبة الى هولاكو الذي استولى على بغداد وديار بكر والجزيرة الشامية والمصرية وحلب وبلدان الشام وجنوب فلسطين.

[3] - حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص11.

[4] - أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية مصر والشام، ط2، نهضة مصر للطابعة والنشر، 1979، ص11.

أسلم معه نحو مائة ألف من أتباعه واعتنق خلفاؤه الاسلام، وليس ذلك فحسب بل رفعوا عن الشعب المظالم تكفيرا لخطاياهم[1]. وتكاد الأوضاع ذاتها تنتشر في **ايران** نظرا للقرب الجغرافي والتلاحم السياسي بينهما، حيث تعاقب عليها دويلات مختلفة ظلت تابعة للخلافة ببغداد منذ القرن الثالث هجري كالسامانية والبويهية والخوارزيمة، حتى أغار عليها جنكزخان ونكل هو وابنه اوكدى بالإيرانيين، وأنشأ الدولة الالخانية والتميورية. ودول متعاقبة . ثم قام تيمورلنك بالاستيلاء تدريجيا على البلاد منذ سنة(782 ه).

أما الشام، فكانت قلب الشرق الأوسط، ومعبرا بين حضارتين احداهما شرقية تستقر أصولها في الهند والصين وبلاد الفرس، والأخرى غربية تمتد جذورها إلى المصريين والإغريق والرومان وما قبل ذلك[2]. ونظرا لطبيعة مناخها المعتدل، فقد عرف أهلها الاستقرار منذ عصور قديمة، بل كانت ملجأ لهجرات قديمة كالكنعانيين والفنينيقين والآراميين وغيرهم، ومن أهم الممالك التي أقامها العرب بها مملكة بصرى في الشمال ثم مملكة تدمر شمال بادية الشام، ثم أدخلت في الاسلام وضمها بعد ذلك عمر الخطاب في حدود 16ه وكان على ولايتها كلها معاوية بن أبي سفيان[3].

وظلت الشام في عهد الدولة الأموية تحت وصايته يستعين بها لنصرته في شؤون الحكم، ثم فقدت في عهد الدولة العباسية الدور في إدارة شؤون الدولة. وقد تولى أمرها كثير من الولاة من مؤيدي الدولة العباسية خوفا من اتباع الناس لهم[4]. لقد تتالت على الشام دول متعاقبة أهم الدولة الفاطمية التي بقيت مسيطرة على الشام نحو قرن من الزمان، واستولى عليها الجيش الصليبي (سنة692ه) واستمر زحفهم نحو الشام وتم التنكيل بأهلها، حتي قيل إن الحوادث التي شهدتها تدمي القلب وتوجعه بسبب كثرة أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل التي انتشرت في شوارع المدن [5] ومما قيل في هذا السياق قصيدة للأيبوري:

وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظـــت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ظهور المذاكى او بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنـــــتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم [6]

---

[1] - أنظر محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في مصر "العصر المملوكي والعثماني"، ص11

[2] - أنظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، دط، منشاة المعارف، الاسكندرية، 1997 حضارة في الشام ص20.

[3] - أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1990، ص10-11

[4] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص16.

[5] - أنظر الكامل لابن الاثير 10/ص193 عن محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، دط، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1997 ، ص25.

[6] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص26

واشتدت جهود المسلمين لدفع الضرر ، فظهرت شخصيات خلدها التاريخ كعماد الدين الزنكي الذي تمكن من استعادة بعض الحصون الشامية، ثم تألق صلاح الدين الأيوبي الذي تمكن من رد العدو مرارا. وقيل عنه **"إنه أعظم حاكم حكم مصر منذ عهد بطليموس الثالث"**[1] ، حيث تمكن من استعادة المدن الواحدة تلوى الأخرى حتى فتح القدس. وكان مماليك مصر يكثرون من توليهم للولاة خوفا من انقلابهم عليهم.

عرفت مصر قيام عدة دويلات واستمر استقلال دولة مصر إلى أن أعاد صلاح الدين الدولة إلى تبعيتها إلى بني العباس. في القرن 7 قامت دولة المماليك* بعد زوال دولة الأيوبيين وتم استيلاء شجرة الدر على الملك بعد مقتل زوجها الصالح أيوب لكنها تنازلت بعدها عن الحكم لأحد أمراء المماليك هو عز الدين أبيك[2] . في البداية قامت دولة الممالك البحرية، وملوكها في الأصل من الترك الذين وجدوا في مصر ملاذا من الاعصار التتاري المدمر، وبدأ الحكام في مصر يستخدمونهم كجنود مرتزقة وبالتدرج أصبحوا الدعامة المسلحة لهؤلاء الحكام[3]. ومن ملوكها قطز وبيبرس والأشرف خليل والناصر قلاوون.

بعدها قامت دولة الجراكسة وهم مماليك تم اسكانهم في أبراج في قلعة القاهرة ، عدد ملوكهم ثلاثة وعشرون، أشهرهم برقوق[4]، وازداد عددهم مع الزمن، حتى أنهم كانوا يجلبون صغارا ويتدربون جيدا في الثكنات العسكرية، وعرفوا بتقريب رجال الدين لاتخاذهم مظهرا شرعيا لكنهم جعلوا مصر قوة مهابة من الجميع[5].

كانت القوة أساس الحكم المملوكي، وقد سيطرت دولتهم على شرق افريقية وشمالي العراق وبلاد الأرمن وشرق شبه جزيرة آسيا الصغرى وبلاد الشام والحجاز واليمن، لقد أصبحت مصر في عهدهم من أقوى الامبراطوريات آنذاك، وأكبر دليل هو موقعة عين جالوت (569ه) التي تمكن فيها الظاهر بيرس من كسر شوكة الصليبيين. فكان أعظم سلاطين المماليك، بل يعتبر المؤسس الحقيقي لدولتهم لما قام به من تنظيم للإدارة الحكومية واستحداث الكثير من الوظائف الهامة، فضلا عن اعداد جيش قوي وأسطول

---

[1] - محمود محمد الحويري، مصر في العصور الوسطى، ص 223 .

[2] - أنظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج1، ص24

* المماليك هو الرقيق الأبيض الذين توافدوا على بلاد العالم الاسلامي منذ العهد العباسي الاول وكانوا في معضمهم ينحدرون من منطقة التركستان الروسية أنظر عطية القوصي، تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربي حتى الفتح العثماني(20ه-922ه)، ص211.

[3] - فوزي جرجس، دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي، تقديم جلال السيد، دط، مطبوعات جامعة عين الشمس/مصر، 1958، ص13.

[4] - أنظر محمود عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني، ص 18

[5] - أنظر محمود محمد الحويري، مصر في العصور الوسطى، ص239-241

كبير ليحارب به أعداء الدولة من صليبين ومغول [1]. كان نشاطهم عسكرية لتصفية الصليب وتحطيم موجات التتار وفي هذا يقول شهاب الدين عماد:

الحمد لله ذلـــــت دولة الصليب وعز بالتـــــرك دين المصطفى العربي

هذا الذي كانت الآمال لو طلبت رؤياه في النوم لاستحييتْ من الطلب[2]

لقد كان أسطول مصر يخوض في البحر الأبيض المتوسط متصديا لحملات الصليبين الشرسة، حتى استيلاء العثمانيين على مصر لتصبح تابعة للدولة العثمانية وليس مركزا للخلافة.

مرت الخلافة العثمانية* بفترات كانت فيه تخضع لحكم السلاطين، الذين حاولوا بسط نفوذهم والاستيلاء على الامارات والقتال مع المغول والصليبين، وحين تم النصر لمحمد الفاتح ودخول قسطنطينة، توسعوا في الناحية الشرقية لأوروبا. لقد تمكن العثمانيون في عهد سليم الأول من القضاء على عهد المماليك في الشام في موقعة مرج دابق (922 ه) واستولى على الشام. ثم سرعان ما تم تقسيمها تحت حكم الباشوات، بعضهم كانوا مع الزمن يحاولون الانفصال عن الباب العالي لكن محاولاتهم باءت بالفشل حتى حصارها من طرف نابلويون 1213ه[3]. وقد تم للدولة العثمانية الاستيلاء على العراق وبغداد سنة(941ه) والبحرين، وعينوا بها أمراء وقضاة وقوة عسكرية تحمي المدن والقلاع.

في هذا العصر كانت البلدان المغاربية تعيش توترا شديدا بسبب الحملات الصليبية والنزوح العربي من الأندلس مع اقتراب سقوط غرناطة (سنة 897ه)، والانقسامات المختلفة بين الأمراء، وكثرة الأجناس التي استوطنتها عبر التاريخ. فليبيا مثلا نزل بها مع مرور الزمن أعداد كثيرة من الفينيقية واليونانين والقرطاجيين، ثم هجرة جموع أعرابية في عهد الدولة الفاطمية من قبائل بني هلال وبني سليم الذين عاثوا في المغرب العربي فسادا . فمنذ أن وطئت أقدامهم ليبيا لم يتوانوا عن تخريب المنشات وكانوا كجراد منتشر وصل عددهم نحو نصف مليون[4]. ثم سعى صلاح الدين الأيوبي قطع أعمالهم

---

[1] - أنظر عطية القوصي، تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربي حتى الفتح العثماني(20ه-922ه)، ص215.

[2] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج1، ص41

* العثمانيون هم سلالة السلاطين الأتراك العثمانيين ويرجعون نسبهم الى الامير التركي عثمان ابن ارطغل وهو زعيم الترك في وادي قره صو في بلاد الأناضول، وتتالت على مملكتهم نحو 36سلطانا قبل ان تتحول الى الخلافة على يد سليم ثم سليمان القانوني. عن عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي، العهد العثماني، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1989 ، ص11.

[3] - أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص35-36.

[4] -أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، "عصر الدول والامارات، ليبيا تونس صقلية"، دط، دار المعارف، القاهرة، 1992، ص124-129

التخريبية وإعادة الولاء لمصر إلى غاية وقوعها تحت الولاية العثمانية على يد محمد الساقلي (سنة1043ه).

تعاقبت على تونس عدة دويلات في هذا العصر كالعبيدية والصنهاجية، وعرفت حملات صليبية على يد لويس التاسع عشر، والنرمان، ثم الهجرات الأعرابية ودخول الاسبان، تمكنت من تحقيق الأمن والاستقرار والتحضر في عهد أبو زكريا يحي الحفصي الذي عني بمجالات الحياة المختلفة [1]، ومرات أخرى كانت مسرحا للقتال على السلطة .أما الجزائر، فتعاقب عليها بدورها دويلات كالاباضيين والأدارسة وبني حماد والدولة الرستمية بتهارت، وسرعان ما وصلت تلك الجموع الأعرابية التي أرسلها المعز الفاطمي إلى المغرب العربي انتقاما منهم من رفض العقيدة الاسماعلية الشيعية، فقاموا بنهب كل منطقة وصلوا اليها وتخريب المنشأت والعمران، وصلت منهم إلى الجزائر قبائل عامر وعدي وأثبج [2]. وشهدت الجزائر صراع دامي بين الصنهاجيين والزناتيين إلى جانب ضغط القبائل الهلالية، إلى جانب تقدم المرابطين إلى تلمسان والجزائر، ثم ما لبثت ان قامت دولة الموحدين على يد عبد المؤمن خليفة الموحدين بالمغرب الأقصى الذي أزال بني حماد وأوقف الأعمال التخريبية للقبائل الهلالية.

وحين قامت دولة الحفصيين بتونس كان شرق الجزائر تحت ولايته وكان أميرها أبو زكريا عادلا وسرعان ما شهد اقتتالا على الحكم في نسله، وفي هذه الاثناء كانت الدولة المرينية تحاول التخلص من الولاء للدولة الحفصية، وبقيت الزيانيون يسيطرون على الجزائر أحيانا وأحيانا أخرى بنو مرين الذين اجتاحوا شرق الجزائر . في حين أن تلمسان حكمتها دولة بني عبد الواد مائة سنة، ثم عادت للمرينين، واستمر الصراع بين الدولتين إلى أن تمكن أبو عمو موسى الثاني من السيطرة عليها وسماها بالزيانية[3]. وهنا تبدأ مرحلة العهد العثماني، وفي ذلك يقول شوقي ضيف: **"أخذت دولة بني زيان بتلمسان وغرب الجزائر تتدهور سريعا منذ نهاية القرن التاسع هجري، وبالمثل تدهورت الدولة الحفصية في شرقي الجزائر وتونس وطرابلس وكان فيرديناند ملك اسبانيا قد أخرج العرب من غرناطة آخر قلعة بالأندلس، فنزلوا سواحل الجزائر وتونس وطرابلس، فرأى أن يستأنف الحروب الصليبية بتعقبهم في تلك السواحل .. واستولى على الجزائر[4].**

---

[1] -أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، "عصر الدول والامارات، ليبيا تونس صقلية"، ص131-136

[2] -أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان، ط1، دار المعارف، 1995، ص37.

[3] -أنظر المرجع نفسه، ص39-40

[4] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر.. ص41-43

وفي هذه الأثناء تدخل الأخوين عروج الذين كانا يقومان بعمليات في البحر المتوسط وأرسل خير الدين إلى السلطان العثماني يعلن له ولاءه، فمُنح له الدعم ضد الاسبان وتمكن من انقاذ السواحل الجزائرية وتحرير معظم الشواطئ المغاربية،وظلت الحملات مستمرة إلى أن تم طردهم نهائيا في عهد الباي محمد الكبير **1205**ه[1].

تمكنت الدولة العثمانية بعد أن عظم شأنها في البحر المتوسط، من الزحف إلى تونس وضمها بعد استنجاد أميرها أحمد الحفصي (سنة977ه)، فأصبحت هذه الدول الاسلامية في عهد سنان باشا تحت قيادتها وتخضع لأوامر الخليفة العثماني، الذي ضم " **المنطقة العربية كلها باستثناء المغرب، أضافة إلى شرقي وأجزاء من تشاد كما تضم تركيا، وأكثر بلاد القفقاس مع ما شملته من بلاد التتار في شمال البحر الأسود[2].** وأنشات حاميات عسكرية من الجيش الانكشاري. ووضعت القوانين الخاصه به، ونظت شؤون البلاد، وهكذا أصبحت الجزائر تابعة للدولة العثمانية، ثم تحول الحكم فيها إلى الباشوات، لكن سرعان ما انفرد الجيش بزمام السلطة عن طريق الدايات[3]، وبقي الأمر على حاله حتى دخول الفرنسيين.

لقد تضافرت مجموعة من العوامل تم ذكرها في كتاب التاريخ الاسلامي سببت سقوط الخلافة العثمانية، بعضها كان داخليا مثل الزواج من الأجنبيات وابتعاد الخليفة عن الرعاية بشؤون الحكم وتركها للصدر الأعظم، وتقاعسه عن الخروج للحملات العسكرية بانصرافه إلى اللهو، وازداد عمل الحركات السرية والمؤامرات وتفكك الأسرة الحاكمة، والحرص على جمع المال لتقوية الجيوش[4]. وزاد الأمر بلة الصراعات التي كانت تقام بين الاخوة على العرش والتي تنتهي اما بالقتل او الفرار وكثرة الانقلابات والفتن الداخلية التي أوهنت قوتها. كما أن اهتمامهم المبالغ بالعسكر وبالجنود دفعهم إلى الاستبداد بالحكم وأصبحوا يتدخلون في شؤون الرعية، حتى أصبحوا أداة تقف في وجه الاصلاح الحقيقي[5].

وهكذا بمرور الوقت تدهورت الأوضاع بالنسبة للدولة العثمانية، ذلك أن الولاة لم يكونوا يعرفون الكثير عن أمور الرعية ولا عن الولاية التي يديرونها، كما ازدادت حروبها الخارجية مع الدول المحيطة بها، وظهرت الفتن الداخلية وانقلابات بعض القبائل العربية ودخلت القومية إلى الميدان واستغلت لإحداث الانقسامات الداخلية واستقلال

---

[1] -أنظر المرجع نفسه، ص44-45

[2] - محمود شاكر، العهد العثماني، ط4، المكتب الاسلامي، بيروت، 2000، ص31

[3] -أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر...،ص45.

[4] - أنظر المحمود شاكر ، التاريخ الاسلامي، ج7 العهد العثماني، ط4 المكتب الاسلامي 2000 بيروت ص115-120

[5] - أنظر المرجع نفسه، ص36.

الدول[1]. وسرعان ما تقلص دورها وتم تقسيم ممتلكاتها، وهكذا وجدت الأمة الاسلامية نفسها وسط تكالب جديد للأخر الأوربي الذي استوطن اراضيها وبدأ يخضعها بكافة الوسائل المتاحة.

2-الظروف الاجتماعية

تتشكل المجتمعات العربية في الجزيرة العربية من قبائل البدو والحضر، إلى جانب بعض الوافدين عليها لأغراض مختلفة كالتجارة أو الحج خاصة مكة، فهي **"من الحواضر التي كثر فيها نزوح الأجانب، إذ توطنها كثيرون من المسلمين الوافدين عليها للحج ابتغاء رضوان الله**[2]. وبسبب الاختلاط بينهم وبين الوافدين عليهم، اهتموا كثيرا بالصناعة والحرف المختلفة وانشغلوا أيضا بالتجارة وتبادل السلع (من تمر وصوف وغيرها)، وكانت لهم صلة وثيقة بمصر منذ العهد الفاطمي، حيث عملت على توفير ما يحتاجونه من القمح سنويا. أما اليمن فقد كانت بلاد التحضر وقد قامت بها قديما دول وحضارة باذخة، فلا غرابة إن كان أهلها يتمتعون بقليل من نعيم الدنيا وخاصة الحكام والوزراء والقادة وكبار التجار، وقد ظلت اليمن والبحرين تتعامل بالزراعة لوفرة المياة بها واشتهرت بكثرة الجواري والغناء[3].

بالنسبة **للعراق**، فكانت الطبقة الأرستقراطية تعيش حياة الرفاهية قبل الدخول التتاري، على رأسها الخليفة والسلاطين وحواشيها من الوزراء والأمراء وكبار الموظفين إلى جانب طبقة وسطى من الكتاب والشعراء. وكانت الموارد تدخل إلى خزينة الدولة من كثرة الضرائب على الأسواق والأراضي الموقوفة لأغراض دينية وتعددت الدواوين التي يخزن فيها المال كديوان الخراج. أما الطبقة الواسعة من الناس فكانت تعاني الضنك والبؤس ممن جعل البعض يميل إلى حياة الاعتكاف طلبا للآخرة، وهروبا من الواقع المرير الذي بدأ يخيم على حياة المجتمع منذ سقوط بغداد على يد هولاكو الذي قضى على الحياة الحضارية التي تمتع بها العباسيون لقرون طويلة.

نفس الأوضاع تماما كانت سائدة في **خراسان وايران**، حيث المجتمع مكون من ثلاث طبقات عليا، تضم الأمراء وموظفي الدولة ثم طبقة ثانية تضم أوساط التجار وطبقة عامة تحوي على أصحاب الحرف والخدم. أما **الشام** ونظرا لموقعها على أبواب آسيا الغربية، فقد اجتمع فيها أجناس مختلفة من الكنعانيين والبابليين والأشوريين والعبرانيين

---

[1] - أنظر المرجع نفسه، ص 35-39

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة..، ص34.

[3] - أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة..، ص35-36.

والرومانيين واليونانيين، وقد وحدهم الاسلام في مجتمع واحد[1]. تعد الشام منطقة جبلية صحراوية في معظمها، هي كثيرة الينابيع والأشجار، إلى جانب عناية أهلها بالصناعات والحرف. لقد عاش أهلها الرخاء في عصر الدولة الأموية ، لكن مع نهايتها تم ارهاقها بكثرة الضرائب، ورغم ذلك بقيت التجارة مزدهرة إلى حد بعيد، حتى إن معظم منتجات الشام كانت تجول المحيط إلى أوروبا[2]. وتعتبر ممر للقوافل التجارية.

كان النظام العسكري يسبب التقسيم غير العادل للطبقات، طبقة الأمراء والحكام والتجار الكبار وطبقة أخرى تخص الشعب الفقير ممن كانوا يعيشون كأجراء على الأرض وكادحين. فالأرض كانت ومن عليها ملكا لصاحب الاقطاع، لهذا كان يتصرف في اقطاعه من أرض وبشر وحيوان ونبات كما يشاء[3]. وفي ظل الحكم العثماني ظل الباشوات يستنزفون خيراتها ، فانتكست التجارة والزراعة وسرعان ما عمها الكساد والظلم والبؤس[4].

وإذا انتقلنا إلى مصر وحالتها الاجتماعية، فإننا نصطدم بكثرة الحديث عن فضائلها واختلاف منتوجاتها، اذ يكفي ان نستذكر مقولة عمرو بن العاص لما راسل أمير المؤمنين مخبرا عنها: **"إن مصر قرية غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر، يكنفها جبل أغبر ورمل أعفر يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر**[5]، بالأضافة إلى الثورة الحيوانية، وتحدث الكتب أيضا عن اختلاط الأجناس فيها.

وقد أدى نشاط التجارة بمصر باعتبار اطلالتهما على البحر المتوسط شمالا وغربا إلى ازدهار مصر اقتصاديا وحصولها على ثروة طائلة. وكثرت تجارة الرقيق المجتلبة من البلاد والأصقاع البعيدة [6]. كما عرف العصر الكثير من المظاهر الاجتماعية، حيث عاش الأغنياء في ترف، وظهرت مظاهر الثراء خاصة في عهد الدولة الفاطمية، وانعكست آثار هذا الرخاء على جميع مظاهر الحياة .لكن الأمور تراجعت في عهد المماليك لانشغالهم بالحروب الصليبية وبالصراعات الداخلية.

كان المجتمع يعيش حياة الاقطاع العسكري، حيث كان السلطان يوزع الأراضي الزراعية على الأمراء الذين كانوا في الخدمة ، أما الفلاحون فلم يكونوا يملكون الأرض، بل كانوا ينتفعون بها نضير الضرائب التي يدفعونها فإذا تخلفوا عن ذلك كانت الأرض

---

[1] - أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص37.

[2] - أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص42.

[3] - انظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص55.

[4] - أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص45.

[5] - عطية القوصي، تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربي حتى الفتح العثماني(20ه-922ه)، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1997، ص7

[6] - انظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص70

تسحب منهم وتعطى لغيرهم..كان هذا القانون نفسه يسري على صاحب الاقطاع[1]. وتذهب الأرباح إلى السلطان ووزراءه.

كانت مصر تحصل الضرائب من السفن التجارية الأوروبية، وكانت البندقية تمد مصر بالحديد والسلاح وخشب السفن وهي المواد التي احتاجت اليها بلادهم وكانت سفنهم تحمل في عودتها من مصر التوابل والمنسوجات وسائر المنتجات الفاخرة[2]. لكن اكتشاف رأس الرجاء الصالح حول تجارة اوروبا مع الشرق إلى هذا الطريق، وفقد المماليك موردا هائلا من موارد المال، لهذا وفي سبيل اقتناء الثروات الهائلة ارتكب المماليك المظالم وتعسفوا ايما تعسف[3]. أمام هذا الوضع عانى أصحاب الزراعات والفقراء وطلاب العلم وأرباب الصنائع وأصحاب المهن من شظف العيش .

الصناعة كان لها شأن عظيم ورفيع خلال الدولة الفاطمية والدليل قوة أسطولها والعتاد الحربية المصنوعة، وكذا صناعة القماس والمفروشات الحريرية والزجاج والخرف وحتى الجانب العمراني[4]، لكن ذلك ظل يتراجع مع نهاية دولة المماليك وازداد بشكل مهول في العهد العثماني مما أوهن القدرة الشرائية للفرد الذي عاش تحت مطارق السلب والنهب والضرائب.

عرف العصر أيضا هزات عنيفة بسبب انحصار النيل والكساد والأوبئة وما زاد الحالة سوءا كثرة الحروب واستنزافها لكثير من الأموال والقوت وإرهاق الناس[5]، هذا إلى جانب شح الطبيعة والمجاعات والأوبئة الفتاكة في مصر .

والوضع مشابه في المغرب العربي،فليبيا باعتبارها من المناطق المطلة على البحر المتوسط، كانت كثيرة الواحات، وغنية بالثمار كالنخيل والخضراوات والكروم، بها مراع في الجيال والهضاب تسمح بتواجد الثروة الحيوانية، إلى جانب معادها الكثيرة، وأكثر الفئات الاجتماعية فيها من البدو الذين يعيشون حياة الرعي والزراعة [6]، لكن الحياة تغيرت بعد النزوح الكثيف الذي قامت به قبائل بني هلال وبني سليم ممن كانوا يعيشون حياة قوامها العصبية والهمجية. أما تونس، فهي من البلدان وفيرة الخيرات، لذا كانت منذ القديم مقصدا للحضارات المختلفة وبسبب كثرة الزراعات وكذا ازدهار الصناعات النسيجية والقطنية واليدوية كالنجارة والحدادة عاش أهلها الحضارة والرخاء في مختلف

---

[1] - فوزي جرجس، دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي، تقديم جلال السيد، ص15

[2] - محمود محمد الحويري، مصر في العصور الوسطى، ص169.

[3] - انظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج1، منشاة المعارف ، الاسكندرية، 1970 ، ص70

[4] - انظر عطية القوصي، تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربي حتى الفتح العثماني(20ه-922ه)، ص182.

[5] - انظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص66/67

[6] -أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، ليبيا ... ص21-32

العصور التي مرت بها البلاد[1]، وكثرت بها المظاهر العمرانية من قصور ومنشآت تاريخية وازداد معالم الحضارة بعد الهجرات المكثفة للأندلسين ممن حملوا معهم لواء التمدن.

وهؤلاء الأندلسين أيضا استوطنوا الجزائر كما المغرب الأقصى وحملوا معهم الكثير من الحرف والمهن والحضارة إليها، وشاركوا في الحروب الصليبية ضد الاسبان، وأضحى المغرب العربي زاخرا بالأجناس البشرية، من **"عناصر افريقية وآسوية واوروبية بجانب سكانها الأصليين من البربر، وقد فتحها وعاشت فيها امم كثيرة فينيقيون ورومان ووندال وبزنطنيون وعرب وترك وقد افادت منها جميعا وفي نظمها وطرق معيشتها وزراعتها وصناعتها**[2]، وتوسع الأمر في العهد التركي بعد دخول الاتراك اليها وعنصر التصاهر، ومشاركتهم للحياة العامة.

وتميزت الجزائر بالعنصر الزراعي لخصوبة الأراضي الساحلية والداخلية ورعي الأغنام ويشهد لها بخيرات كثيرة من ثمار وفواكه وقمح وتين وجوز، إلى جانب كثرة المواشي والإبل، وظلت التجارة زاخرة بها خاصة في المدن الساحلية، حيث كانت تتاجر بالعديد من السلع مثل الزبيدة والسمن والعسل وباق يالمنتجات الغذائية وكذا تصدير المنسوجات والزيتون والنخل[3].

وبخصوص العصر العثماني فقد كانت الدولة العثمانية، مكونة من طبقات، الطبقة الحاكمة مكونة فقط من العنصر التركي وهي التي تمتلك زمام الأمور السياسية والعسكرية والإدارية، أما الطبقة الثانية فهي مؤلفة من رجال الدين الذين نالوا حظا من الثقافة الأصلية، خاصة وأن السلاطين العثمانيين. وعامة الناس هم الطبقة الثالثة وهي تتكون من فئات عربية وغير عربية[4].

3-الحركة العلمية والأدبية

شهد هذا العصر الكثير من الغموض والتقول عليه بالضعف، لأن تقريبا الحركة العلمية والأدبية انحصرت في الشام ومصر. أما باقي البلدان فقد عرفت بقلة الروافد الثقافية والفكرية، خاصة في العراق بعد الدخول التتاري، فقد خرست الألسن، وماتت الحركة العلمية والأدبية بسبب تدمير مدارسها ومكتباتها واحراق مخطوطاتها وكنوزها العلمية[5]، إن المغول تخلصوا من أغلب المؤلفات العملية والمخطوطات وشردوا رجال العلم.

---

[1] -أنظر المرجع نفسه، ص147/146.

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر...ص54

[3] -أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر....ص55-57

[4] - أنظر عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي، العصر العثماني، ص27-30

[5] - أنظر محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني، ص10.

. إن ما خلفته هذه العصور في حياتنا المعاصرة يفوق ما خلفته باقي العصور،.عموما يعتبر النقاد العصر الفاطمي والأيوبي عصر العناية بالعمل والثقافة، إذ تم فيه احياء أمهات الكتب والاهتمام بعلوم القرآن والشرع والفقه، بل إن كثير من الأمراء والملوك سارعوا إلى تقريب العلماء والفقهاء رغم كثرة الحوادث الملمة بالأمة الاسلامية، وقد بلغ عدد المدارس التي أنشأت في القاهرة في عهد المعز الفاطمي أكثر من عشرين مدرسة، وأسس الجامع الأزهر لتدريس تعاليم المذهب الاسماعيلي وباقي العلوم وكما أُسس دار الحكمة الذي كان يضم أكثر من مليون كتاب[1].

كان نظام التعليم في المدارس الاسلامية وقتئذ يقوم على مرحلتين مرحلة التعليم الابتدائي وكان منهاجه في جميع البلاد الاسلامية يقوم أساسا على كتابة الخط وقراءة القرآن وتعلم النحو والصرف والشعر، والمرحلة الثانية التعليم العالي وكان يقوم على تفسير القرآن ومعرفة الديانات والفلسفة وأصول اللغة وفقهها والشعر وعلم القراءات والفقه بمذاهبه والتاريخ وعلم البلدان [2]. وهنا يؤكد محمد زغلول أن المسلمين ظلوا يميلون إلى الكتب والإطلاع لغياب المنتديات السياسية والأدبية التي كانت موجودة سابقا، حتى إن الواحد من العلماء منهم تجد عنده أزيد من ألف كتاب[3].

إن الحركة العلمية النشيطة التي كانت سائدة في عصر المماليك كانت بسبب الرخاء والاستقرار النسبي، فقد شجع المماليك النهضة ودفعوا العلماء إلى التأليف واسندوا اليهم المناصب، وامتلأت خزائن الكتب ودورها بنفائس المؤلفات وعنوا باللغة العربية وبديوان الانشاء [4]. فالحكام كانوا **"يحبون الأدب ويجيزون عليه ويجلسون للشعراء مجالس، ينصتون فيها إلى شعرهم وينقدون انتاجهم، ويكافئونهم على مقدار جودتهم وكانوا يتأثرون بالشعر ويؤثر فيهم ويتراسلون به، ويدخل ضمن ثقافتهم التي لا غنى عنها لهم ويتمثلون به كلما عن لهم ما يدعو إلى الفول العاطفي المثير[5]**. فرعاية الفاطميون للأدباء والشعراء لا تحتاج إلى استدلال، وقد اغدقوا عليهم الكثير من العطاء والرزق الثابت الذي تغنى به الشعراء، ولم يتوانى الوزراء عن استمالتهم. وعرف العصر باشتهار الكثير من المؤلفين والكتاب.

ونفس الأمر بالنسبة للأيوبيين الذين كانوا يميلون إلى قرض الشعر، وقد أورد الكاتب **أحمد بدوي** أمثلة شعرية كثيرة لهم، وتحدث عن كبار الأمراء والوزراء الذين نظموا الشعر، لأنهم كانوا يدركون ما للشعر من تأثير في نفسية الآخرين، حتى أنه

---

[1] - أنظر عطية القوصي، تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربي حتى الفتح العثماني(20ه-922ه)، ص186.

[2] - انظر تاريخ العرب مطول 3 ص669/668 عن محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص90 .

[3] - انظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 93.

[4] - أنظر محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني، ص 17.

[5] - أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية في مصر والشام، ص23.

استخدم لتحفيز الجنود في المعارك والوقوف ضد الأعداء، وكانوا يعقدون مجالس يستمعون فيها إلى الشعر التي يقال في الاشادة بمعارك المسلمين ضد الصليبين ... خاصة في المواسم والحفلات المتنوعة، إلى جانب المجالس الأدبية المختلفة التي يتنافس فيها الشعراء ويتبارى فيها المثقفون منها كتلك التي كان يعقدها الأشرف بن قلاوون[1].

كثر الاهتمام بجمع وتدوين النصوص الأدبية والشعرية أيضا، تحديدا تلك التي يمكنها تهذيب لسان العرب والمجتمع في عصر اختلط فيه اللفظ الفصيح بالأعجمي ودخله اللحن، واشتهر العصر بالمدارس والجوامع وكثرتها الحلقات العلمية، كالمدرسة المنصورية والناصرية، والمؤيدية وامتلات خزائن هذه المدارس بالكتب الثمينة في مختلفة العلوم حيث وجد في المدرسة الفاضلية ما يزيد عن مائة ألف مجلد وغيرها[2].

كانت الحركة العلمية في المغرب العربي في هذا العصر تعيش جوا من الاختلاف بين البلدان، فليبيا بقيت التعاليم الدينية بها منتشرة لتحفيظ القران وتعليم العربية في الزوايا التي اتسعت لتعم كافة الأرجاء وكانت تلقى بها حلقات العلم(أولاد سهيل في ق8ه، وزاوية عبد السلام الأسمر بمدينة زليطن وكان بها مكتبة تزيد عن 500مجلد في (900ه)[3]، ورغم أن الهجرات الأعرابية قد أوقفت الحرة العلمية والحضارية في ليبيا نحو ما يزيد عن مائة سنة إلا أنها انتعشت في المراحل التالية في عهد دولة المماليك والدولة الحفصية، خاصة أن معظم العلماء والأدباء كانوا يمرون بها خلال رحلاتهم العلمية من المشرق إلى المغرب، حيث **"كان موقع ليبيا في طريق الأندلس والمغاربة إلى زيارة الأماكن المقدسة ذهابا وايابا، يتيح لمدنها مثل طرابلس وبرقة ان يزل بها بعض العلماء ويطيب له الاقامة فيها شهرا أو عد أشهر "[4].**

وعنيت الدولة الحفصية في القرن السابع ببناء المدارس والمساجد ودور العلم في تونس وكان بعض الدول في الجزائر ذات صلة وثيقة بالعلم، خاصة دولة الزيانيين بتلمسان والحماديين ببجاية، وظل جامع تهارت منارة للعلم والثقافة في مختلف العهود.

ورغم فقدان الكثير من المؤلفات النفيسة بعد الهجرات الأعرابية وتخريب المنشأت وكذا كثرة المعارك بين القادة والانقلابات في الحكم، إلا أن تونس بقيت تحتفظ بالعديد من الكتب والمجلدات في جامع الزيتونة والقيروان، وبقي التعليم قائما خلال العهد العثماني

---

[1] - انظر أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية في مصر والشام، ص24-35

[2] - أنظر محمود عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني، ص 20.

[3] -أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، ليبيا تونس صقلية، ص64-66

[4] - المرجع نفسه، ... ص63.

لكنهم لم يعنوا بالمكتبات العناية الواجبة ولا بالتعليم الجيد، فقد انتظم وكان يسير وفق الوضع العام[1].

أيضا قل الاهتمام بالأدب بسبب اهمالهم للغة العربية لعدم معرفتها جيدا، وكان الاهتمام باللغة التركية أكثر في المجالات الرسمية وفي الدواوين والمعاملات الداخلية والخارجية، إلى جانب اللغة الفارسية، ورغم ذلك "**بقيت اللغة التركية تحت تأثير اللغة العربية لدرجة كبيرة جدا، حتى ظهرت اللغة العثمانية، وهي مزيج بين اللغة العربية والفارسية والتركية** "[2]. والنتيجة أن كثر الجهل وعمت الأمية في البلدان التي كانت تتحدث العربية، مما أضعف الحركة العلمية والأدبية وزادهم تأخيرا عن ركب الحضارة آنذلك، حتى اهتمامهم بالإسلام جعلهم بنظرون اليه كقوانين وعبادات وليس منهج حياة، مما أضعف الجهاد في البلدان الاسلامية وفتح المجال لكثرة الطرق الصوفية.

4-في الميدان العقائدي

المجتمع الاسلامي في زمن الحروب الصليبية كان مكونا من عقائد مختلفة، ومن سلالات عرقية مختلفة أيضا، فإلى جانب القبائل العربية، كان يعيش الأتراك والفرس والتركمان والأكراد، ولكن أغلبه يدين إما بالشيعة وإما بالسنة. لقد عرفت الجزيرة العربية المذاهب السنية الأربعة ومذاهب الشيعة المختلفة، على غرار عمان التي كانت مركزا للخوارج الإباضية ، ثم عرفت انتشار الدعوة الوهابية السلفية على يد محمد ابن عبد الوهاب التي تدعو إلى الرجوع إلى طريق السلف ونبذ البدع التي شابت العقيدة الاسلامية [3]، وقد أدى ذلك إلى حروب طاحنة .

كما كثرت التقاليد الدينية بسبب كثرة الاختلاط بين الشعوب وساعد الحكام على تنميته لمقاومة الغزو الصليبي من العكوف على الصلاة والقراءة والمدارس التعليمية وكثرة مجالس الذكر والوعظ، مما أدى هذا كله إلى وجود محصول كبير من الكتب الاسلامية التي ألفت في هذا العصر والتي تدور حول الموضوعات الفقهية والحديث والتاريخ الاسلامي والتراجم[4]. كانت الشيعة هي عماد الدولة الفاطمية حيث اعتنى بها الحكام وتم بناء على ذلك تشييد الجامع الأزهر لتعليم تعاليم المذهب الاسماعيلي، ومع ذلك فقم يكونوا متزمتين مع باقي الديانات حيث عرفوا بالتسامح،حتى مع أهل الذمة ، وهنا يقول أحدهم:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية امالهم وقد ملكوا

---

[1] -أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، ليبيا ..، ص175.

[2] - عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي، العصر العثماني، ص40

[3] - أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة...،ص40-47.

[4] - أنظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص73

العزّ فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك[1]

بقي السنيين يحاولون الابقاء على وجود لهم، وقد تم احياء مذهبهم في عهد الدولة الزنكية، كما أن قيام الدولة الأيوبية أعاد السنّة لديار مصر وبقي المذهب السني سائدا في عهد الأمراء المماليك، حتى إن كل سلاطين المماليك كانوا من أتباع المذهب الشافعي[2] واهتموا كما قلنا كثيرا بالدين ورجاله وبنوا المساجد ودور العلم.

أما في المغرب العربي، فقد كان الدين الاسلامي قوام الأمة، بعد الفتح لكن طبعا الصراعات الحضارية والفوضى السياسية والأمنية وتغير الأحداث كان تتيح فئة دينية القوامة على فئة أخرى، مثل التشيع الذي عمّ في أعقاب الدولة الفاطمية بمساعدة قبائل بني سليم وبني هلال، وظلت الدولة العبيدية في تونس والجزائر تحاول نشر بعض المعتقدات المجسدة للذات العلية. لكن العلماء لجؤوا إلى تعاليمهم السنية في بيوتهم[3].

عادت لمذاهب السنة نشاطاتها بعد رحيل الفاطميون، وبهذا كان المذهب الفقهي السني **هو الذي تتبعه البلدان المغاربية لا في الاقليم التونسي وشرقي الجزائر فحسب، بل في جيمع بلدان الجزائر والمغرب الأقصى وأيضا في طرابلس وبرقة، وأخذ يدرس في كل بلد مغربي وكقر فقهاؤه**[4]، فظل هو المذهب الأساسي واشترك معه المذهب الحنفي خلال عهد الدولة العثمانية.

---

[1] - سعيد عاشور، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص96 نقلا عن محمود محمد الحويري، مصر في العصور الوسطى، ص163.

[2] - أنظر عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ط2، المكتبة العباسية، دمشق، 1972، ص79-84

[3] -أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، ليبيا ... ص23-24.

[4] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر... ص70.

مقياس: أدب عصر الضعف

السنة الأولى ماستر، تخصص: الأدب العربي الحديث ومعاصر

المحاضرة الثانية

ظاهرة التقليد لدى أدباء العصر

إن ظاهرة التقليد ظاهرة ملازمة للأدب في الحقيقة في أي فترة زمنية ومهما كان توجه الكاتب، ذلك أن مرافقتها للأدب أمر منطقي بالنظر إلى ميل النفس الانسانية نحو الماضي وتشرب تراثه، وميل الفطرة إلى ما تم ابداعه لمعرفة أساليب الكتابة وفنياتها وإثراء منهجها أو تجاوزه، ، وما بالك بالشعر الذي يحضى بتراث ضخم وبنماذج نالت اعجاب المبدع والمتذوق للأدب، فلا يمكن مهما بلغت قدرات الشاعر أو الكاتب أن يغفل عن التراث الأدبي الذي يغذي مرجعياته الفكرية والمعرفية، ويمده بمنهج الأولين، ثم إن ظاهرة التقليد كظاهرة التجديد هما ملازمتان للحياة ومن طباعها أيضا، وهما كوجهي الورقة، ففي كل تقليد نوع من الابداع وابتكار ولو كان بسيطا، يعود طبعا إلى أسلوب الشاعر الذي يطبع بشخصيته أسلوبه الكتابي وإلى العصر الذي يعيشه والذي ينفرد بطابعه وأحداثه، وبما أن الأدب مرآة العصر وصورة عن المجتمع، فإن المنطق يحتم على المبدع الاستجابة للظروف الراهنة التي يعيشها.

وإذا كان التجديد يعني التطور وتجاوز الاطار العام الذي يسود في العصر ، فإن التقليد يعني المحافظة على الأصول والقواعد المعمول بها في أي مجال، وعدم الانسلاخ عن الماضي، ونظرا للظروف التي أحاطت بالأمة في مختلف محطاته التاريخية منذ مجيء الرسالة ومنذ بداية الانفتاح عن الآخر بسبب الدخول في الاسلام وظروف الحياة المختلفة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تفرض على المرء التعامل مع الآخر، فإن التيار التقليدي وجد له أنصار، وبقي أغلب الأدباء يتمسكون بالتراث الأدبي العربي من باب الانتماء أولا ومن باب الافتخار بالتراث والمخزون المعرفي ثانيا.

أكد الكثير من المؤلفين ممن تناولوا عصر الضعف في الأدب عموما عدم خروج الشعراء على نهج أسلافهم في خصوص ابداعاتهم الشعرية، وحرصهم على عدم المغامرة بالانقطاع نهائيا عن الماضي، خوفا من طمس هويتهم ومعالمها، وهنا يقول محمود محمد سالم : **"كان أهل العصر المملوكي يعظم التراث بمكوناته كلها، فقد أرادوا الحفاظ على هويتهم القومية من خطر الغزوات العاتية، فتهيبوا من تجاوزه وفترت**

همتهم في البحث عن موضوعات جديدة ذات شأن واكتفوا بما وصلهم من السابقين وبالمعاني القديمة، يكررونها ويولدون منها[1].

فالوضع العام الذي كان عليه المجتمع الاسلامي آنذلك لم يكن يبعث على الابتكار، بسبب انصراف الحكام عن العناية بالشعر، فالسلاطين والحكام لم يكونوا ممن يتذوق الشعر، ولم يكونوا يحفلون به ولا بالشعراء وقلت الهدايا والعطايا، وانصرفت الطبقة الحاكمة إلى الاهتمام بالجيش وبالحروب، وانشغل الناس بما يسد رمقهم لذا اتجه الشعراء نحو تعلم الحرف والصناعة التي تكفل له العيش مما جعله يختلط بالطبقة العامة من الناس، فنقصت موهبته الشعرية، ولغته . إذن ظهر نزوع واضح لدى الأدباء (ليس جميعا) نحو التقليد واتجه الشعراء خاصة نحو الاقتداء بمن سبقهم، واستعادة أنفاسهم في نصوصهم الشعرية، وتكررت الأغراض الفنية ويمكن أن نقف عند أهم هذه الأغراض التي بقيت تسير على نهجها التقليدي:

1-فن المدح

كان من أكثر الموضوعات الشعرية التي توارد ذكرها على ألسنة الشعراء القدامى، فهو **"ديوان مثلهم الخلقية من الجود ومدح النفس والكرامة وإحقاق الحق والعدالة في الملوك والسلاطين وسجل المتحاربين ومجدهم للدعوة لقطع رقاب الاعداء"**[2]. وقد التفت فيه الشعراء نحو الملوك والوزراء وذوي المكانة العالية يقدمون حلوهم لوحات بهية ممتلئة بالمدح الأخلاقي وإشادة بدورهم الفذ في المجتمع من تحقيق لانتصار او اشاعة للعدل.

ورغم أن صيته خف ودخل عليه التكلف والفتور في القرون التي أعقبت القرن الخامس هجري، إلا أنه بقي يحوم حول الملوك والأمراء والعلماء، وكان تقريبا لكل وزير أو أمير شاعر يروح له، وكان أكبر شعراء اليمن في ق7 هو من نجران بوادي ضمد القاسم بن هتميل، ومما قاله في مدح **أحمد بن علي الحرامي الكناس** أكبر قبائل علي بن يعقوب:

حفظ الله أحمد حيثما كا ن وجادته ديـــــة مدرار

الشريف الشريف والجوهر الجو هر والخالص النضار النضار [3]

اشتهر **شرف الدين الانصاري** في مدح ملوك حماة الأيوبيين ومما قاله:

بعين جالوت خطت بحر وعني تخال فلكا بالأسد مشحونا[4]

كثيرا ما التفت الشعراء في مدحهم إلى بعض القادة ممن حققوا انتصارات ضد الصليبيين كالظاهر بيرس والمنصور قلاوون ومحمد الناصر، فهؤلاء ظل صيتهم يتردد

---

[1] - محمود محمد سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ص24.

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة، العراق، ايران، ص336.

[3] - المرجع نفسه، ص155.

[4] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص140

على الألسنة ونسجت حولهم هالات من القداسة، ويمكن التوقف عند شهاب الدين محمود في مدحه للظاهر بيرس بعد موقعة عين جالوت:

ولله في اعلاء ملكك في الورى مراد، وفي التأييد يوم الوغى به الدهر

ألا هكذا يا وارث الملك فليكن جهـــاد العدا لا ما توإلى به الدهر[1]

لقد أشاد بسيفه وقوته وهو الذي كافح الافرنج طويلا لاسترداد بعض الدول الواقعة تحت الصليبين. وما لوحظ في المدح هو الاشادة ببعض الشخصيات التي كان لها حضوة أدبية فيقوم الكاتب بمدح غيره لإعجاب نلمسه لديه وقد قيل في شهاب الدين محمود شعر قاله عفيف الدين التلمساني:

هذا الشهاب الثاقب النـــور الذي حاكى سناه عقد جوهر وصفه

والنافث السّحر الذي لو جُسِّدت كلماته ثغرا لهمـــت برشفه [2]

طبعا لوحظ في العصر ميل الشعراء إلى الاختصار فيما ينشدونه من أشعار ، بسبب الاطناب الكبير الذي عكف عليه الشعراء سابقا مما أطال المدة الزمنية التي يستغرقونها خلال عملية الانشاد، والوقت كما نعلم في هذا العصر لم يكن يسمح للإطناب بسبب الاضطرابات السياسية والأمنية والفتن وكثرة الحروب التي كان يخوضها المسلمين، يقول أحمد بن مفرح في ذلك:

أُمرنا أن صوغ المدح مختصرا هلا أمرت ندى كفيك يختصر

والله لابد أن تجرى سوابقنا حتى يتبين لها في مدحك الأثر[3]

وقيلت أكثر المدائح حول وزراء الدولة الفاطمية وخلفاؤها الذين استمالوا الشعراء وأغدقوا عليهم المكافـءات، كي يتمكنوا من الاشادة بقوتهم وبفضائلهم، ولنا مثال لابن زيد في قصيدة مدح بها الوزير الأفضل يقول فيه: **لولا وجودك في الزمان وجودك محي المكارم بعد بعد وفاتها**

لم يعرف المعروف في الدنيا ولو طفنا عليه في جميع جهاتها[4]

كثرة المدح في الوزراء كشف لنا على مدى السطوة التي كان يحضى بها وزراء الدولة الفاطمية وقوة سلطانهم على الرعية، وما بالك بالخلفاء والملوك. وقد ارتفع صوت التنويه في أعمالهم بانتصارات المسلمين على التتار في الموصل، كما ظل الشعراء يقدمون المدح لملوك الدولة العثمانية، ونجد منجك بن محمد بن منجك(سنة 1080ه) وله مدائح كثيرة في استاذه المقري،

---

[1] - النجوم الزاهرة، ج7، ص325 نقلا عن أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية في مصر والشام، ص73.

[2] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص32

[3] - أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية في مصر والشام، ص71

[4] - الخريدة ورقة 121 ب نقلا عن أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية في مصر والشام، ص71

وكما هو ملاحظ فأن المدائح بقيت تشيد بالقيم والانجازات التي قام بها الممدوح في صور تذكرنا بممدوح العصر العباسي، وظلت تحتفظ بأسلوبها التقليدي ونظام ذي الشطرين، رغم اختصار الذكر فيه كما قلنا وعدم اطالتها وعدم المبالغة، ولعل أكثر الشعراء الذين ساروا على منهج السابقين في مدائحه كان ابن نباتة الذي اتخذ منه وسيلة للتكسب وقد خصه لملوك الدولة الأيوبية، الملك المؤيد وابنه الأفضل بعد أن عانى شظف العيش والفقر، ومما قاله في المؤيد:

والمعال يفي آل أيوب ارث كالنبوءات في آل يعقوب

وسقى الله اصلكم فلقد أثمـــ ر من نسله بكل نجيب[1].

طبعا الملوك في هذا العهد أغلبهم من الأعاجم، أو من الرقيق، لذا هم لا يحفلون بالنسب ولا بالأصول، لذا نادرا ما نجد من عني بمسألة النسب في الممدوح، لذا انفرد ابن نباتة في الحديث عنها وهي من المعاني المكررة في الشعر العربي، وقد التفت ابن نباتة ايضا إلى الكماليات في الممدوح، باستحضار الصورة المكتملة للرجل على نحو أبي فراس الحمداني،و منها قوله:

الماجد الراقي مراتب سؤدد قد رصعت بجواره الجوزاء

عمت مكارمه وسار حديثه فبكـــل أرض نعمه وثناء[2].

لقد وضع الشاعر المعاني القديمة نصب عينه واستحضرها خلال رسمه صورة الممدوح، فأعجب به عصره بعدما أضاف اليها بعضا من مستجدات عصره، وتلك ميزة أكدها عمرو موسى في كتابه بقوله: **"وصف الشعراء ممدوحيهم بصفات استمدوها معظمها من سابقيهم، فهم في جل مدحهم عالة عليهم، اذ إنهم في نظرهم المثل الأعلى الذي يجب أن يحتذى به، فلا يجدون في أخذ المعاني أو سرقتها عيبا، لكن العيب كل العيب أن يقصر الشاعر فمه، فإذا ما أخرجه مخرجا جديدا كأن يضيف اليه ما يزينه، أو يبعد عنه ما يشينه، فذلك هو الشاعر المجيد حقا"[3]**. لذا تكررت صفات مثل الجود والكرم والغيث والبأس والشمس والقمر..الخ.

2- في شعر الحكمة

وتبقى الحكمة كفن أصيل في المجتمع العربي مبثوثة في أشعار الشعراء ، وقد كان أبي العلاء أكبر شعراء الحكمة في الشام، وكثيرا ما كانت تترد على ألسنة أطباء الشام وقد وردت عبارة عن منثورات في كتب **التاريخ** للشيخ شمس الدين الحمصي وعمر بن الوردي سنة (749 ه) في سبعين بيت، كما وردت على شكل أبيات شعرية في الكشكول لبهاء الدين العاملي ومما قاله:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب من هزل

---

[1] - ديوانه، ص24، نقلا عن محمود محمد سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ص29

[2] - ديوانه، ص12 نقلا عن محمود محمد سالم، المرجع السابق، ص31

[3] - عمرو موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص413.

واتق الله فتــقوى الله ما مازحت قلب امرئ إلا وصل [1].

ثم سطع اسم حسن الجرزي الحلبي في زمن العثمانيين (ت 1034ه)، له ديوان موزع وحكمه الشعرية كانت كثيرا ما تدعو إلى الصبر والعزم والأمل والاعتصام بالله قائلا:

رويدك إن بعد الضيق مخرج وصبرك عنده أبهى وأبهج
وكم من كربة عظمت وجلت وعند حلولها الرحمن فرج [2].

فالشعراء حاولوا مجاراة المعاني السابقة، لإضفاء الفخامة والبيان على أشعارهم، وتبقى المعاني القرآنية هنا واضحة بسبب اشتداد الكربة على الأمة الإسلامية، إن **"عناصر الثقافة آنذلك لم تخرج عن القرآن الكريم وعلومه والحديث الشريف وعلومه واللغه وعلومها، والتاريخ والمنقول عن الثقافات الأخرى في العصور السابقة، فهذه الوحدة الثقافية تحتم على أصحابها أن يكون ابداعهم الأدبي واحدا أو متشابها[3]**. وعليه، فقد اتجه الشعر الحكمي إلى الدعوة إلى الصبر وتقوى الاله وانتظار فرجه والاستفادة من خطوب الأولين .

3- في شعر الهجاء

لقد كان له حضور قوي عند العرب منذ الجاهلية، فهي عادة مع العرب، إن مدحهم لبعض الأشخاص لم يلغ هجاءهم اللاذع لبعضهم الآخر في محاولة منهم لعقد مقارنات وهمية بين شخصين، أو المفاضلة بسبب القيم التي يتم الاتصاف بها، لكنه في العصر المملوكي والعثماني قل مقارنة بما كان عليه، وذلك يعود إلى غياب النعرات القبلية والصراعات المذهبية، وانشغال الناس بالحوادث العظام التي تجمع الأمة أكثر مما تفرقها.

عموما، نال الخلفاء والفقهاء وأيضا العلماء نصيبهم من الهجاء، ومن الشعراء ابن منير الطرابلسي وابن عنين ولهذا الأخير هجاء في سلطان مصر العزيز عثمان لما طلب منه الزكاة يقارنه بعزيز اليمن:

ما كل من يتسمى بالعزيز لها أهــل ولا كل برق سحبه غدقة
بين العزيزين بون في فعالهما هذاك يعطي، وهذا يأخذ الصدقة[4].

نوع الشعراء ما بين ذم وانتقاد وسخرية من الأفراد خاصة من الوزراء والقضاة والفقهاء، وهذا يذكرنا تماما بالهجاء الذي شاع بين الشعراء في الأندلس بعدما فقد الشعراء الثقة في هؤلاء الموظفين الذين كانوا يستغلون مناصبهم للنصب على الناس، لقد

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص165

[2] - المرجع نفسه، ص183.

[3] - محمود محمد سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ص25.

[4] - ديوان ابن عنين، ص223 نقلا عن أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية، ص83.

كان خير وسيلة تكشف ظلم الرعية واضطهادهم للطبقة الكادحة، وليس ذلك فحسب، فقد مال إلى تناول الكثير من السلوكات التي شاعت بينهم من مظاهر الانحراف والشذوذ، والابتعاد عن القيم الأخلاقية بالسخرية منه بصورة هزلية وتكشف عوراته وعيوبه، من الهجاء هنا من عني بقضية السرقات الأدبية كما هو الحال بالنسبة لمجاهد الخياط في هجاء الشاعر أبي الحسن الجزار قائلا: **أبا الحسن تأدب ما الفخر بالشعر فخرُ**

وما تبللتَ منه بقطرة وهو بـــحر[1]

ويظهر الهجاء عند ابن نباتة كأحكام نقدية يطلقها على النصوص الشعرية، ومما قاله في مجاراة لأحد الشعراء الذين انتقدوه اسمه البالسي:

أتاني علي البالسي بشعره فيـــا لك من شعر ثقيل مطول

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل[2].

فسرعته في الايقاع شبهها بما قاله امرئ القيس في حصانه، وتداخل معانيه، وجفائه وقساوته مثل الصخر، وطبعا ما هجاء الشعر هنا سوى هجاء لصاحبه البعيد عن العبقرية والاجادة، وقد نحى هذا المنحى في كثير من الأحياء حتى أضحت نقده عبارة عن هجاء ظاهر للآخر بالاستعانة بالأبيات الشعرية السابقة وبمنهجهم الشعري. من الهجاء أيضا ما توجه به الشعراء نحو أصحاب المذاهب الدينية ومنهم مجبر الدين بن تميم(684 ه) الذي قال:

دعوا الشيخ من كحل العيون فكفه سيوف إلى الطرف الصحيح الدواهي

فكم ذهبت من ناظـــر بواده وألـقت بياضا خلفها وماقيا [3].

تمكن الهجاء كنوع من النقد الاجتماعي أن ينقل إلينا بعض الملامح العامة التي كانت سائدة في هذا العصر، وسخرية الشعراء على سبيل التهكم من أحوال المجتمع وسلوكاتهم، وعاداتهم .ولم يسلم من الهجاء في هذا العصر حتى القضاة ومما قيل من بابا الدعابة إن صادف أن كان على قضاء في دمشق ثلاثة رجال أسماءهم تشترك في كلمة شمس، فسخر منهم أحدهم بقوله:

أظلم الشام وقـــد ولى الحكم شـــموسُ

ليس فيهم من بيـــت الحكم علما أو يَسوس[4].

إن الهجاء في مجاراته لأحداث عصره وأحواله الاجتماعية والسياسية لم يتغافل عن اطاره التقليدي ولا عن بيان مكانة المهجو بين أقرانه وكذا سوء أفعاله، وان مال إلى السخرية والتهكم، فإن قوة الأسر كانت في الألفاظ والتراكيب ومنح المهجو صفات قديمة شائعة، ولعل عينة ابي بكر ابن حماد التيهارتي شاهد على ذلك يقول في هجائه للشاعر

---

[1] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص39

[2] - ديوانه، ص422 نقلا عن محمود محمد سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ص48.

[3] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص222

[4] - ذيل الروضتين، ص236 نقلا عن أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية، ص86

دعبل على شكالة حسان ابن ثابت في هجائه لأبي سفيان : **أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ويمشي على الأرض العريضة دعبل**
ولكن أمير المؤمنين بفضله يهم فيعفو أو يـقول فيفعل[1]

4- في شعر الفخر

ساعد الفخر على الانتشار انشغال الناس بإظهار مقدرتهم الشاعرية والبلاغية في زمن قلت فيه الفصاحة والنبوغ الشعري، ومن الشعراء ابن نباتة الذي قال:

تعلمـــــــت أنواع الكلام برفده فأصبحت أعلى الناس شعرا وأحسنا
إذا قيل من رب المكارم في الورى أقل هو، أو رب القريض، أقل أنـــا[2].

وقد اشتهر هذا النوع وسط الطبقة الحاكمة كما عند **سليمان النبهاني** آخر سلاطين بني نبهان ، كان من نتائج الصراعات المستمرة بين المسلمين والصليبين أن توسع شعر المعارك ووصف الفتوحات التي كان يقوم بها جيش الفتح الاسلامي في سبيل استعادة تلك المدن الواقعة تحت الصليبين، إلى جانب ذكر الحصون التي كانت تسقط تباعا في يد الأعداء، ويمكن ايراد مقطوعة لعمر بن الوردي الذي وصف سقوط احدى قلاع الأرمن على يد قائد حلب يقول فيها:

جهادك مقبول وعامك قابل ألا في سبيل المجد ما أنت فاعل
هنيئا بعود من جهاد مبارك على الناس بالجنات كاف وكافل [3]

ويعد الفخر بصراحة من الأغراض التي توثقت صلتها بالعصر، فظهرت أحواله وظروفه القتالية والجهادية، وكذا اشتداد الحصار والبلاء، مما زاد من توسع الفخر وتمسكه بالمعاني السابقة حول المجد والنسب والشجاعة والقوة، إلى جانب التوعد بالجزاء الآخروي، فكان صورة صادقة عن تلك الانتصارات التي حققها المسلمون والملاحم الكبرى ضد الافرنج. وكثيرا ما كان الشاعر يبدأ مقلدا لكنه يجد صعوبة في المواصلة والمحاكاة فيلجأ إلى الابتكار فيسقط في الصنعة والتكلف. ويمكن أن نورد بعض الأمثلة من الشعر المغاربي في هذا العصر، كعينة أحمد بن علي المليانى (ت715ه) مفتخرا بنسبه وعزته وفضله على شاكلة المتنبي يقول:

العز ما ضربت عليه قبابي والفضل ما اشتملت عليه ثيابي
فالمجد يمنع أن يزاحم موردي والعزم يأبى أن يُسام جنابي[4]

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي(الجزائر....،) ص159.

[2] - ديوانه، ص489 نقلا عن محمود محمد سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ص35.

[3] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص36

[4] - تعريف الخلف، ج8، ص 68 نقلا عن شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، (الجزائر...) ص151.

استمرت تلك النزعات الفخرية بالانتصارات في العهد العثماني على الصليب، خاصة في بلاد المغرب العربي الذي كان يعاني من اشداد حملاتها بعد سقوط الأندلس، وبعد تخليص الجيش العثماني لكثير من سواحلها من الاسبان ومن الذين قالوا في الفخر محمد الرشيد الحسين:

أرى العِزَّ لا يأوى سوى بيت مجدنا ولا في حـــمانا يستذل ذليل
وان نحن سرنا في كـــماة جيوشنا فللخيل وقع في الثرى وصهيل
تكاد جبال الأرض من عظم بأسنا تذوب على سطح الثرى وتميل[1]

ويتحدث المؤرخون عن الشاعر ابن منجك (ت 1052ه) والذي كان شاعر مجيد في زمن العثمانيين ومما قاله: **العين يدميها الذبا ب ويجز الأساد زيه**
والتبر يعلوه التراب وفضـــــله باق ولبه [2].

5- في شعر الرثاء

إن الرثاء **"أكثر فنون الأدب اندفاق عاطفة وانسياب حنين، لا ينضب معينه على مر الأيام، ومرد ذلك النزف الداخلي لجرح الفقيد والفراق الذي لا يوازيه جرح آخر ولا يعوضه شيء في الوجود. إن هو إلا عزاء وسلوان أو مواساة وكل منها لا يعدو أن يكون بسلم تخدير أو تسكين لا أكثر"[3]**. فحين يكون العصر عصر الحملات الصليبية وعصر الفتوحات والمقاومة، فمن الطبيعي أن يتأثر شعر الرثاء بهذه الظروف، فيلتفت الشعراء إلى رثاء الأمراء، إذ لا نكاد نجد أمير ولا وزير إلا وتم رثاءه، خاصة مما كانت لهم سطوة وحضور وسط المجتمع.

وقد نال بعض الوزراء والأمراء والقضاة نصيبهم من الرثاء، ونال العلماء نصيبهم الأوفر منه ، لما لهم من منزلة سامية وتقدير وسط المجتمع الذي تمسك بالمعارف، وانشغل بها فرارا من الأزمات والخطوب المختلفة، وكذا بسبب شيوع العلم والثقافة. من الشخصيات التي نالت حضها من الرثاء محمد بن مالك صاحب الألفية المشهورة وقد رثاه شرف الدين الحصني:

يا شتات الأسماء والأفـــــعال بعد موت ابن مالك المفضال
وانحراف الحروف من بعد ضبط منه في الانفــصال والاتصال [4]

لم يكن الشاعر في رثائه أحيانا يحفل بمكانة الميت الاجتماعية، فقد يرثي شخصا عاديا، ومما قيل هنا رثاء حول ملّاح للشاعر حيدرة بن القاضي النفيس:

كانت المركب التي أنت فيها حرما آمنا كحصن حصين

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، (ليبيا....)، ص244.

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص239

[3] - ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ط1، دار جروس برس للنشر، لبنان 1995، ص162.

[4] - بغية الوعاة ص55 نقلا عن أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية في مصر والشام، ص79.

فهي اليوم بعد فقدك عطل بل حطام ملقى ليوم الدين[1]

بالاضافة إلى المناسبات الدينية التي يكثر فيها الحديث عن النبي الكريم والخلفاء الراشدين وخاصة يتم فيها رثاء الحسين، واشتهر خلالها بهاء الدين العاملى (سنة 1030ه). وتم **رثاء المدن** وبكاؤها بسبب ما لحق بها من نهب وصواعق خاصة بعد تدمير المغول لمعظم آثارها الحضارية، ومن الشعراء من راح يبكي عهد الدولة الفاطمية في مصر ويتذكرون أيامها وما صاحبته من عز واستقرار، ويحضرنا قول ابن عمارة متذكرا اثارها:

مررتُ بالقصر والأركان خالية من الوفود وكانت قبلة القبل

قلبت عنها بوجهي خوف منتقد من الأعادي ووجه الود لم يمل[2]

فقد تم القضاء على الدولة وتم تدمير قصورها، فبكى الشعراء تلك القلاع والحصون التي أصبحت في يد الأعداء ولكمال الدين ابن الزملكاني قصيدة ملئية بالحزن في رثاء دمشق فحواها:

لهفي على جِلَّق يا سوء ما لقيت من كل علجٍ له في كفره فنُّ

بالطمِّ والرِّم جاءوا لا عديد لهم فالجن بعضهم والحنّ والبُّ[3]

ومن الشعراء المغاربة الذي رثوا دولته الحفصية بتونس بعد زوالها محمد بن عبد السلام الذي قال:

سقى الله هاتيك الديار وأهلهـا سحائب تحكي صوب مدمعي القاني

وحيا ربوع الحي من خير بلدة تخيرها قدما أفـاضل يونان[4]

في الرثاء الحديث عن التقليد لا يستدعي التأكيد، فالصفات التي تقال في الميت هي ذاتها في كل العصور، كون الانسان انسان، ثم ان القرابة والصلة العاطفية هي من طباع المرء، حزنه على الفقيد هو حزن أبدي يذكره بالنهاية والمصير المرتقب، وكان حزن الشاعر ابن نباتة على أولاده كبيرا، فقد فقد زوجته ثم فجع بأولاده صغارا، ولم يبق له أمام الوضع إلا الصبر على شاكلة أبي ذؤيب الهذلي، فقال:

أبنيّ قد وقفت علي حوادث فوقـفن من طلل على آثار

وليصطبر متفجع فلربمـا فقد المنى ومثوبة الصبـار[5].

ومن الشعراء المقلدين شهاب الدين محمود الذي نظم قصيدة في رثاء صديق له مشيرا إلى سنة الحياة في الكون، ودورتها التي لا تبقى على أحد:

ان خيول الدهر ان طاردت اتبعت الأول بالآخـر

---

[1] - الطالع السعيد، ص124 نقلا عن أحمد بدوي، المرجع السابق، ص80.

[2] - أحمد بدوي، المرجع نفسه، ص 75.

[3] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص37

[4] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدلو والامارات(ليبيا....)، ص 286.

[5] - صفي الدين الحلي، ديوانه، ص 353 نقلا عن ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص168.

لا تحرصن منه على مورد فغاية الوارد كالــصادر[1].

والمعنى لا يكاد يبتعد عن ما قاله عمر ابن أبي ربيعة:

وما المال والأهلون الا ودائع فلابد يوما ان ترد الودائع

فأما الالتفات بالشعر إلى بعض الأشخاص وتجاهل البعض الآخر، فذلك أمر يتعلق بالظروف وبالأفعال وبمدى قربه من الشاعر، لكن رثاء المدن وبكاؤها يشبه ذلك الحنين إلى المكان في المقدمات الطللية التي تصدرت أشعار القصائد وأغلبها منذ العصور الجاهلية، انها تلك الصلة الحميمة بين الانسان ووطنه او بينه وقبيلته.

6- وصف الطبيعة والمجتمع

أول ما يتبادر إلى الذهن في هذا الغرض هو ذكر محاسن الطبيعة، والأراضي الواسعة والجبال والوديان ووصفها بمروجها الخضراء وعيونها الجراء، إلا إن الشعراء في هذا العصر لم يلفتوا إلى ذلك، وغابت الطبيعة عن أشعارهم ويرجع المؤرخون والرواة ذلك إلى غياب الاستجابة من نفوس الشعراء الذين تغيرت أمزجتهم في الحياة، مكتفين بالبحث عن أساليب الرزق والأمن، وما ورد قليل بعضه يقتصر على شعراء الشام كعمر بن الوردي، وأيضا ابن الصائغ في استعادة لجمال بلاده وطبيعته الخلابة يقول:

فلكم حكت تلك المنازل صورة فيـــها الجمال مجمَّع ومُفرَّق

كم من غزالٍ بالــنفوس متوَّج وقضيب بانٍ بالعيون منطق [2]

تعرف الشام بالطبيعة الخلابة والمناظر الآسرة للقلوب، لذا من الطبيعي أن يقوم شعراؤها بتقديم لوحات شعرية يلتفتون فيها إلى كل ما هو جميل كالطير والربيع، ومما يصادفنا قول **فتيان الشاغوري** في وصف قرية تكسوها الثلوج آيام الشتاء:

يا جنة الزبداني انت مسفرة عن وجه حسن اذا وجه الزمان كلح

فالثلج قطن عليك السحب تندفه والجو يحلجه والقوس قوس قزح [3].

التفت بعض الشعراء في مصر إلى وصف بعض المظاهر الحياتية المنتشرة في الشوارع والأسواق، وقد تكفل بعرض هذه الأوصاف ابن نباتة وابن دنيال بدون تكلف ولا مبالغة، ومما قيل في وصف النيل قصيدة لــ علي بن محمد بن علي بن خروف الأندلسي، قال:

ما أعجب النيل ما أحلى شمائله في ضفتيه من الأشجار أرواح

من جنة الخلد فياض على ترع تهب فيها هبوب الريح أرواح[4].

---

[1] - ديوانه، ص12 نقلا عن محمود محمد سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ص31

[2] - فوات الوفيات ص3/ 328 عن محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص55

[3] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص258

[4] - بغية الوعاة، ص354 نقلا عن أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية، ص 84.

وتكثر مثل هذه الأشعار في عصر العثمانيين. يلقانا من هذا العصر ابن النقيب (و1048ه)، وتنسب له مطارحات شعرية ومشاركات أدبية، ومما قاله عن عمله كجندي:

نحن الاّ قطاعة الأجنادِ وبرايات غُر هذا النَّادي

نحن إلاَّ حكاية وخيالٌ وحديث لحاضر ولبَادى[1]

ولُوحظ انشغال الشعراء بوصف الحمامات العامة وهو لون طريف استحدث في العصر وكذا الشكوى من الدهر ، وقد اشتهر مصطفى البابي من حلب في (ق 11ه) يقول:

أي ذنب نعاتب الدهر فيه وعتاب الأيام داء عضال

أنا ما بين فرقة تجم السق م وبعد تدنو به آجال [2].

ومن الشعراء الذي تحدثوا عن الزمن وتغيره والشكوى من حوادثه سراج الدين الوراق الذي تذمر من مكانة الشعراء قائلا:

ما لي ونظم الشعر باتت صبوتي والناس قد غيبوا عن الآداب

أأقوله عتبا بلا سبـــــب له والشعر مبني على الأسباب[3]

ومن شعراء المغرب العربي آنذلك ابراهيم عبد الجبار الذي ترك مقطوعة بديعة يصف فيها صقر ومما قاله: **عظيم ثلاث: رأسه ثم فخذه ومنسره لجزر ما هو صارع**

له عدة من نفسه في مخالب شديد سوادها، حداد لواسع[4]

لقد شاع في العصر استحضار قصائد الأولين ومنهجهم الشعري خاصة قصائد أبي تمام والمتنبي والبحتري، وأبي نواس حتى أضحت الألفاظ والتراكيب المقتبس بها مكررة في دواوين هؤلاء الشعراء، خاصة ذكر الديار والأحبة والشوق وارتحال الحبية والهجران، وباتت المقدمات الغزلية منهجهم الذي يتصدرون به قصائدهم وتعمدت في هذه المحاضرة ذكر الأغراض بنوع من التفصيل لمعرفة مدى تواترها في العصر وروادها وبيان منهجهم التقليدي، وتركت الباقي للمحاضرة السابعة التي تحمل عنوان خصائص الشعر في عصر الضعف تجنبا للتكرار، لأن التقليد الذي ظهر في أسلوب بعض الشعراء وأغراضهم يعد احدى خاصيات العصر.

فالنظر إلى المعاني السابقة كان أمر جلي في كثير من القصائد التي شاعت في العصر، وهذه الخاصية توصل اليها عمرو موسى بعد عرض لمختلف الأغراض الشائعة في العصر فقال: **"نؤكد أن شعراء العصر نظموا في أغراض الشعر المختلفة وفنونه**

---

[1] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص147

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص256

[3] - شرح لامية العجم 353/2 محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص181

[4] - تعريف الخلف، 7/2 نقلا عن شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر..،ص189

التقليدية المعروفة، وقد لاحظنا أنهم كانوا يتعبدون معاني القدماء وصورهم وكانوا أحيانا يبرزونها في اطار جديد ولدته في انفسهم أحداث العصر الكبرى[1]. رغم أن الأسلوب لم يكن واحدا لدى الشعراء، إلا أن مختلف الظواهر الأسلوبية كانت تطورا لما سبق، حتى ظاهرة الصنعة التي ميزت العصر العباسي الثاني، فقد تطورت في هذا العصر إلى أن أصبحت ميزة العصر، ومما سبق نلاحظ أن التيار التقليدي كان أحد الاتجاهات الفنية التي سار عليها الشعراء، والسبب في ذلك يعود إلى رغبتهم في محاكاة النماذج القيمة للإجادة في القول، والإبقاء على جذور الفصاحة مما يكسبهم تلك الروح الحماسية والافتخار ، إلى جانب التكوين الذي يكتسبونه منها فهي مصدر للنهل وللدربة.

طبعا الاتجاه التقليدي لم يكن الاتجاه الوحيد، بل حتى الغالب لنقل ذلك صراحة، لأن ما ميز العصر هو تلك الزخرفة التي شدت اهتمام جل الأدباء صغيرهم وكبيرهم، بعدما عدت معيارا لإظهار قدراتهم الابداعية، والتي أيضا عدت مقياس لذكاء الأديب وثقافته، كما مال البعض الآخر إلى الاقتراب من لغة العامة من الناس، باعتبار أن الشاعر كان يعيش وسط أفراد المجتمع يعمل لكسب العيش ويختلط بهم، **"فكثيرا من الشعراء خرجوا من فئات العامة وتوجهوا إليها ، ومنهم من كان أميا لا يقرأ ، ولا يكتب لكنه أوتي موهبة الشعر**[2] ، فقام بنظم الشعر بأنواعه.

يتميز الاتجاه التقليدي بإتباع نفس الشكل الذي بنيت عليه القصيدة العربية، فهي تبدأ بالمقدمة الطللية التي تبكي الديار والرسوم، وساعد على استعادتها سقوط القلاع والمدن في أيدي التتار والأعداء، مما دفع النفس الشاعرية إلى الحنين اليها والبكاء على الدمار الذي أصابها، وكذا عامل التهجير الذي عانى منه الشعراء سواء ممن فروا من الأندلس مع اقتراب زوال دولتهم، واشتداد الحملات الصليبية عليهم، أو من الشرق الاسلامي ممن كانوا يعانون الويلات على أيدي التتار والمغول وحتى اقتتال الدويلات فيما بينها.

لتستمر القصيدة في وصف الرحلة والحبيبة والغزل إلى أن يتم الوصول إلى الموضوع الأساسي الذي يرميه الشاعر، ومع أن الشعراء استعانوا الشكل التقليدي لكنهم لم يسفروا في عدد الأبيات التي كانت عبارة عن انتقال بسيط لا يتجاوز أبيات قليلة بدون عواطف متفجعة يقول ابن نباتة:

لولا معاني السحر من لحظاتهـــا ما طال ترددي إلى أبياتهـــا
ولما وقفت على الديار مـــــناديا قلبي المتيم من وار حجراتـــــها[3]

يكشف لنا الشاعر عن رغبة الشعراء التخلي عن المقدمة الطللية عن وعي بعدم ملائمتها للعصر الذي بدأت يشهد تغيرات عميقة، واستبدالها إما بالمقدمة الغزلية ، أو الدخول مباشرة في الموضوع، ولولا شوقه إلى الحبيبة لما استفتح بها قصيدته، فحبه لها

---

[1] - عمرو موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص533.

[2] - محمود محمد سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ص132.

[3] - ديوانه، ص66 نقلا عن محمود محمد سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ص134

دفعه إلى الحديث عن الرسوم للتأكيد على أن حبه لها قائم مثل تلك الأطلال ويتحدث عن الرحلة لكن اي رحلة انها رحلات الناس فرارا من الموت، وحين يصل إلى موضوعه الأساسي الذي هو المدح او الخمرة كما هي عادته ومما قاله:

في قفار يخاف في أفقها البـــر ق سوى فهو خافق الأحشاء

وقعت في حماك في استراحت من اليمـــين الرحل والبيداء[1]

وبالنسبة للصياغة الشعرية التي تظهر قدرات المبدع، فإن معظم الشعراء في هذا العصر قد مال أسلوبهم إلى الجزالة والرقة، ووصل الأمر عند البعض إلى الركاكة والضعف، ومن الذين حافوا على الصور التقليدية ومعاني السابقين ابن نباتة الذي نهج منهجهم في تركيب الجمل وفي اختيار بعض الكلمات وحتى الصور ومما قاله:

ان ينأى عن عني منك شخص باخل روحي وما ملكت يداي فداؤه

فلرب ليل شق طيفك جنـــحه والصـبح لم ينشق عنه رداؤه[2]

وإذا مررنا إلى الفنون الشعرية السائدة في المغرب العربي، فإننا مباشرة نستعيد تلك المقولة السائرة التي تؤكد على افتتان المغاربة كما الأندلسيون بالشعر المشرقي، حيث ظل المثل الأعلى الذي يستمدون منه قيمهم الأخلاقية وموضوعاتهم الأدبية، فقد بقيت الفنون الشعرية من مدح ورثاء وفخر وهجاء وغيرها متواترة بشدة في نصوصهم الشعرية، رغم التجديد الذي لامسته بعض الفنون الأخرى كالوصف ورثاء المدن إلا أن المنحى العام بقي سائدا، وبالغوا في تقليدهم، وهنا يؤكد حنا الفاخوري أن **"الأندلسيون والمغاربة استعملوا ألفاظا عربية لم تبق في ذلك الحين مألوفة في المشرق كما اجتهدوا في اشتقاق صيغ متنوعة أو في استحداث معان جديدة لصيغ قديمة بحسب ما اقتضته أحوال بيئاتهم[3]**. ونقف عند الشاعر يَغمراسَن الذي اشاد بالانتصار الذي حققه كمؤسس للدولة الزيانية بالجزائر على السعيد الموحدي صاحب مراكش سنة(646 ه) على شاكلة أبي تمام في قصيدته التي مدح فيها المعتصم حين فتح عمورية(في قوله فتح تفتحت أبواب السماء له...):

فتح تبجست الأنواء صـــــادقة بودقه ومحت أنواره الغلسا

فتح تفتحت أبواب السعد عن كثب عنه وأنجز فيه اليمن ما التمسا[4]

وبقيت نفس الأساليب شائعة لدى كثير من الشعراء المغاربة مثل أبو حمو موسى الثاني (ت791ه) ومن شعراء العهد العثماني يحي بن ابي راشد الذي قال في مدح محمد بكداش والي وهران حينئذ: **ملك تفرد بالكمال ولم يكن لكماله في السالفين مـــثال**

---

[1] - ديوانه ص 7 عن محمود محمد سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ص138

[2] - ديوانه، ص 10 نقلا عن محمود محمد سالم، المرجع السابق، ص158

[3] - حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، الجزء الرابع، الأدب في المغرب والأندلس منذ الفتح الاسلامي الى آواخر عصر ملوك الطوائف، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، ص197.

[4] - أنظر تاريخ بني زيان، ملوك بني زيان للتنسي، تحقيق محمد بوعياد، ص 119 نقلا عن شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، الجزائر، ...، ص126.

دانت له الأيام طرا مثلمـــا دانت لليث الغابة الأشبال[1]

ولدينا من تونس الشاعر علي الغراب الصفاقصي الذي ذاع صيته في القرن الثاني عشر هجري، وترك بعض المديح ومما قاله في الأمير بن علي الحسين:

مليك له فضل ومجد وسؤدد وكل مليكٍ عن معاليه يقصرُ

له عفَّةٌ مقرونة بصيـــــانة عن الفحش في أفعاله وتطهرُ[2]

وهناك نماذج كثيرة قدمها بيومي السباعي في كتابة تاريخ الأدب العربي بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين، أكد في كل مرة يتحدث فيها عن الشعر عن مدى التقليد الذي ظهر لدى معظم الشعراء، ومما ذكره قائلا بصريح العبارة اليك بعض أمثلة لهم في هذا منتزعة من النماذج السالفة معظمها لابن نباتة لغيره وابن مليك الحموي والمقريزي وشهاب الدين بن فضل الله[3] وسنكتفي بما تم ذكره .

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، (الجزائر، المغرب، موريتانيا، السودان)، ص130.

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، (ليبيا، تونس،صقلية)، ص130.

[3] - أنظر بيومي السباعي، تاريخ الأدب العربي بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين، ص137-139.

مقياس: أدب عصر الضعف

المستوى: السنة الأولى ماستر(تخصص الأدب العربي الحديث والمعاصر)

المحاضرة الثالثة

الشعر الديني (المدائح النبوية) في هذا العصر

1-عن الزهد والتصوف

موجة الزهد لا تقل انتشارا واتساعا في الساحة العربية في هذا العصر، فهي إلى جانب كونها من طوابع الحياة الاسلامية المستقرة في الأمة، فقد أضحى معظم أفراد المجتمع يبعث عن التقوى بسبب كثرة الحروب والاضطرابات هروبا من حوادث الدهر الأليمة، فالحياة كانت تقوم على الشظف والفقر، لذا كان الانسان أبعد ما يتعلق بالحياة

إذن لقد قويت في هذه الفترة مسالك التمسك بالآخرة، بسبب اليأس من الحياة الدنيا والتطلع لما عند الله سبحانه من جزاء آخروي، وهناك من وجد في الزهد مسلك للهروب من تيار الفساد الذي دب في المجتمع. وكانت هذه التيارات الدينية والحركات مدعمة من الدولة لمسايرة الشعور العام، ففي هذا العصر ظهر نوع من الانصراف عن الحياة والتواكل وازدادت بزيادة الأحداث التي تكالبت على الوطن العربي ووصله إلى مرحلة التذمر والتعصب واليأس والخنوع، وانتشرت فلسفة احتكار الدنيا والإحساس بالضياع بسبب الغزاة واستبداد الغرباء وتكالب الأعداء.

وسيطرت السنة على عقائد المسلمين وتداخلت بعض الشرائع مع التتار والمغول. وقد شاع في أوساط المجتمع واعتقدت به الدولة وبنت الرباطات والخانقاه وتم تقريبهم والتمسك بالدين أو التظاهر بذلك حتى يوهموا الناس بالزهد ويغفلون عن حقوقهم.

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا في تعريفه وتحديد معالم شخصيته وأسلوبه، فظنوه مشتقا من الصوف، وقاول البعض في التصوف ألا تملك شيئا وأن لا يملكك شيء أو باختصار هو طريق الوصول إلى الله تعإلى [1]، في حين رأى البعض في الصوفي من لزم الصدق مع الحق والحق مع الحق . والنتيجة أن كثرت الطرق الصوفية، فظهر تيار آثر

[1] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج1، ص259

التقشف والإعراض عن الدنيا والقرب من الله وآخر آثر الاعتدال، بينما مال البعض إلى التهاون في تطبيق الكتاب والسنة ويقول أحدهم:

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صاح فصوحا حتى سمي الصوفي[1]

انتشر الزهد في مكة وما جاورها، واتصف به كل مسلم يهوى إلى مكة لأداء الفريضة. بهذا عرفت مكة بمجاورة أشهر الزهاد كابن فارض وشهاب الدين السهروردي وابن عربي حين نظم فيها ترجمان الأشواق [2]. وقد عرفت اليمن الزهد والتصوف السني وطرقه من شاذلية ورفاعية ولعل أشهر صوفي عرفت به هو **أحمد بن علوان** المتوفى سنة 665، وكان له أتباع كثيرون كما ظهروا في حضر موت **كأبو بكر العيدروس** (ت 914 ه)، **وعمر بامخرمة** (ت 952ه).

لم تكن عمان وإقليمها بيئة تصوفية لغلبة الخوارج الاباضية عليها لكنهم كانوا أصحاب زهد وتقشف كذلك البحرين التي كانت بعيدة عن الزهد في عهد القرامطة. من شعراء الدعوة الاسماعلية والزيدية نجد **يحي بن يوسف النشو** من أمراء مكة الزيدين ومما قاله:

له صمة تسمو إلى كل غاية خو الطاهر الانسب والعلم الفرد
هو الملك الماحي لمن كان قبله فما في ملوك الأرض .. [3]

وموسى بن يحى يهران الذي مدح شرف الدين أمير صنعاء يقول فيه:

خليفة الرحمن في ارضـــه مبارك الوجه كريم الجدود
بر كريم من بني المصطفى اما حق ساعدته الحدود

كانت الدول العربية تخضع لدول سنية أو شيعية في ق11 ويحضرنا قول **أبا اسحاق الحضرمي:**

يا ما اذا ثار الهيجاء يفـــعل في أعدائه فعلة الجزار في البدن
ومن اذا فاخر الأشراف في ملأ شاعت مفاخره في الشام واليمن [4]

وكان للخوارج شعرائهم أيضا ممن كان يدعو إلى مذهبه التشيعي وظهر شعراء الدعوة الوهابية ممن كانوا يدعو الآخرين إلى الرجوع إلى دين السلف مثل **محمد بن اسماعيل الحسنى الصنعاني** ومما قاله:

ولا تستطع من عابد لنجومه تقاوم زور ليس تفنى ولا تجدى
أكاذيب يميلها لكل مفعل يصدقها من ظل عن طرق الرشد [5]

---

[1]- محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج1، ص262

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة ... ص49.

[3] - المرجع نفسه، ص466.

[4] - المرجع نفسه، ص173.

[5] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، "الجزيرة العربية....، ص182.

ومن شيوخهم المشهورين في القرنين السادس والسابع نجم الدين كبرى ومجد الدين بغدادي (ت 610ه) وشهاب الدين السهر وردي (632 ه)وعبد القادر الجيلالي ومحي الدين بن العربي وابن السبعين وغيرهم [1]. وكان **ابن العربي** أعظم عبقرية خيالية في التصوف الاسلامي، له نظرات حول وحدث الوجود والألهوية في كتبه الكثيرة وديوانه الذي يحمل عنوان **نصوص الحكم**، فـ**" الله وحده هو الوجود الحقيقي الظاهر في كل مظهر من مظاهر الخلق المتلجلي في صورة الصوفي عند فنائه عن نفسه في حال وجده"** [2]. هذا وقد أثّر ابن العربي في الفكر الصوفي الذي جاء من بعده. يضاهيه تقريبا في النباهة ابن السبعين (614ه) وهو ممن يقول بالاتحاد ووحدة الوجود، يقول:

من كان يبصر الله في الصور فانه شخص في أكمل الصور
بل شأنه كونه بل كونه كنهه فانه جملة من بعضها وطري[3]

وبهذا التقى التيار القادم من الأندلس مع ابن السبعين وابن العربي وآخرين جاءوا من العراق مثل السهر وردي وجلال الدين الرومي(672ه).

كان التصوف السني هو الشائع في **الشام** وقد نزل بها **وعفيف الدين التلمساني** (ت 690ه) الذي كان صوفيا فلسفيا يؤمن بوحدة الوجود. وعرف بفضله وأدبه. له مؤلفات في التصوف منها ما هو شرح لأسماء الله الحسنى وشرح فصوص الحكم لابن العربي. ومما قال:

لا تلم صبوتي فمن حب يصبو انما يرحم المحبَّ المحبُ
كيف لا يوقد النسيم غرامي وله في ديار ليلى مهب [4].

ولطالما تغنى دولة المماليك بالتصوف ورصدت لها أموالا ضخمة من أجل بناء المدارس، فشاعت القادرية والرفاعية والطريقة المولوية والنقشبندية في أواخر القرن الثامن هجري، ومن الشعراء المشهورين في عصر الممالك **الامام النووي** الفقيه الشافعي (ت سنة676ه) وكان اماماً ورعاً متمسكا بمبادئ الدين الاسلامي ومما قاله:

وجدت القناعة أصل الغنى فصرت بأذيالهما متمسك
فلا ذا يـــــراني على بابه ولا ذا يراني به منهمك
وعشت غنيا بلا درهـــم أمر على الناس شبه الملك [5].

---

[1] - انظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص76

[2] - ديوان ابن العربي، ص324 عن أحمد أحمد بدوي الحياة الأدبية في الحروب الصليبية بمصر والشام، ص 96.

[3] - المرجع نفسه، ص188.

[4] - فوات الوفيات، 2، 228-230، نقلا عن عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني، ط5، دار للعلم للملايين، بيروت، 1989، ص659/658.،

[5] - المرجع نفسه، ص274.

لكنه سرعان ما خفت التصوف في ظل العهد العثماني بعد الغائهم نظام قضاة المذاهب الأربعة [1]. لقد تحولت أحوالهم موضوعا لكثير من الشعر يصفون تلك الطقوس التي يمتازون بها وكذا الحفلات الدينية التي يشاركون فيها، يطالبعنا في هذا العصر متصوف هو **عبد الغاني النابلسي** (1143ه) وبسبب كثرة قراءته كثرت عنده المؤلفات حتى قيل أن مؤلفاته اجاوزت مائتي كتاب ومما قاله مجاهرا بوحدة الوجود:

إنه الله وجود واحد حكمة فـــينا حرام وحلال

وهو حق وسواه باطل قال في القرآن والسبع الطوال [2].

2- في المدح النبوي

لطالما اقترن الزهد والايمانيات بشعر المدح النبوي تنويه بمكانة النبي المصطفى وعلو رسالته، فقد اتخذه الصوفية وسيلة للتعبير عن معتقداتهم وحبهم الالهي وكذا شوقهم إلى النبي الكريم، فقد كان لهم بالغ الأثر في بعث معاني المدح النبوي والاهتمام به في كل الأوقات، كما اتخذه المجتمع وسيلة للدفاع عن الدين وصاحبه ضد الافرنج ممن كانوا يشنون حملات تشويهية عليه، وهنا وقف كثيرا من الشعراء بالمرصاد للأعداء يتغنون برسولهم الأمين واشتهر البويصري محمد بن سعيد بن حماد في قصيدة البردة " ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد" يقول في هذا السياق:

وما على قول كعب ان توازنه فـــربما وازن الدر المثاقيل

وهل تعادله حسنا، ومنطقها عن منطق العرب العرباء معدول[3]

تعد القصيدة من أشهر من كتب في مدح النبي الكريم والاشادة بخصاله، وقد أكد من خلال قصيدته ما تركته قصيدة كعب من أثر في نفوس المسلمين، إذ نسجت حولها الكثير من الأساطير، وحركت ذهنيات الأفراد، ولم يتوانى البويصري عن التغني بمكانته في قصائد أخرى وبمعجزاته ومما قاله في همزيته:

كيف ترقى رقيك الأنــبياء يا سماء مـا طـاولتها سماء

لم يساورك في علاك وقد حا ل سنا منكط دونهم وسناء [4].

ويشهد للبويصري بشعر غاية في الحسن واللطافة، فهذه القصيدة بعد أن يعرض نسبه ومكمن معجزاته، **"يلتفت إلى صفات الرسول من نسك وعبادة ونجابة وهداية وقدرات لا حدود لها تمكن بفضلها من محو ايات الكهانة السائدة في زمانه ويعرج**

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص69.

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص288

[3] - أحمد أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام، ص522

[4] - البويصري، الديوان، تحقيق سيد كيلاني، مصر مكتبة مصطفى البابي واولاده، 1955 ص1 - 29 نقلا عن عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، من مطلع القرن الخامس الهجري الى الفتح العثماني، ص675.

على زوجه خيدجة التي رأت فيه ملامح الرجال العظماء فدعته إلى الزواج قبل بعثته[1].
وله قصيدته عارض فيها زهير مستخدما أساليب التورية والبديع ومظهرا قدرات على استيعاب الشعر القديم ومعرفة بأسرار النظم التقليدي، كما اشتغل بالمقارنة بين الدين الاسلامي وباقي الديانات وعقد موازنات بينها، وعموما فقد أشاد النقاد والمؤرخون بشعره، وعد خير من رفع النبي وخير من أجاد في الغرض.

ولعل معاني المدح النبوي كانت تستعيد قصائد الأولين بصورها وأساليبها، وهي تدور حول وصف الكعبة الشريفة والمدينة المنورة، ومقام الرسول الكريم، بل إن شهاب الدين الخيمي الذي أصل لمذهب الوجد وموضوعات الشوق وألام الوفاء والحب قدم قصائد في المدح الالهي والنبوي معا، ومما قاله في هذا السياق: **وما أراني أهلا أن**

توصـــلني حسني حلو بأني فيك مكتـــئب

لكن ينازع شوقي تارة أدبي فاطلب الوصل لما يضعف الأدب[2]

ويلقانا قول لفتيان الشاغوري وهو يرجو شفاعته يوم الحساب:

وودت بأن زرت قبرك راجلا وقبلت تربا انت فيها موسد

ومرغت خدي عند قبرك ضارعا بأرض حصاها لؤلؤ وزبرجد [3].

فشدة الخطوب التي ألمت بالأمة الاسلامية جعلت من المدح النبوي أداة لتهين الصعاب ومجابهة المشاكل والموت المحدق، وهنا يشير الباحثون إلى مجموعة من العوامل التي ساعدت على انتشار المدح النبوي منذ نهاية العهد الأيوبي وبداية عهد المماليك، منها "**اضطراب الحياة السياسية في معظم الأحيان بسبب النزاع بين الأمراء والسلاطين، وسوء الأحوال الاجتماعية في مختلف مظاهرها وتدهور الأوضاع الاقتصادية لأسباب كثيرة، وجثوم الخطر على البلاد من قبل الأعداء الطامعين في الشرق [4].** وقد انشغل به شرف الدين الأنصاري والشهاب محمود الذي أعلن عن فرحه بلقاء بيت النبي الكريم وزيارته وهناك نموذجا آخر لـــابن الساعاتي يظهر شوقه إلى النبي الكريم ولمقامه:

فسيد الرسل حقا لا خفاء به وشافع في الناس مقبول

بثت نبويته الاخبار اذا نطقت فحدثت عنه توراه وانجيل[5].

ولـــمحمد بن سوار (ت 677ه) أبيات في باب المدح النبوي وفي ذكر فضائل النبي (ص) وفي التصوف، ومما قاله في هذا المجال:

فاذا سكرت فمن مدامة حبكم وبذكركم في سكرتي اترنم

واذا نظمت تغزلا في صورة فلاجل حسنكم المحجب انظم

---

[1] - بيومي يوسف، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص120.

[2] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج1، ص333

[3] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص277

[4] - عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص408.

[5] - المرجع نفسه، ص411.

انتم حقيقة كل موجود بدا ووجود هذه الكائنات توهم [1].

نخلص مما سبق أن المديح النبوي ثبتت أقدامه وأضحى له شعراؤه ممن كانوا همهم الأساسي هو الانكباب على وصف النبي الكريم والإشادة بمكانته ورسالته وجهاده، وكانت الصفات التي تقال فيه صادقة بعيدة عن الزيف والتملق، لأن الممدوح ليس انسانيا عاديا، لذا مهما حاول الشاعر المبالغة فهو لا يستوفي خير الخلق، ولا مكانة النبي عند الله، ولدى عند الخلف وقد ركز عليه ابن غانم قائلا:

نبي الهُدى المبعوث لله رحمة لقد ظل إلا من بشرعته هدى

بشير نذير أظهر الخلق عنصرا وأطيبهم أصلا بأشرف محتد [2]

لقد كانت مشاعرهم تسودها الكثير من الصدق والحرارة والشوق الحار بسبب ظروف العصر المتوترة ، ولعل أكثر من برز في هذا النوع الشعري **صفي الدين الحلي** الذي ترك قصائد وفيرة في مدح النبي (ص) وقد نهج فيها البناء التقليدي في صوره وأسلوبه ومما قاله:

إلى خير مبعوث إلى خير أمـــة إلى خير معبود دعاها بشيرها

ومن أخمدت مع وضعه نارُ فارس وزلزل منها عرشهُا وثَـــبيرها

ومن نطقت توراة موسب بفضله وجاء به انجيلها وزبــورها [3]،

أكد الدارسين إن شعره صادق لا تكلف فيه وهو سلس، وغايته هو اظهاره مشاعره وحبه للنبي الكريم، وكان الشاعر كثيرا ما يلجأ إلى استخدام وجده الصوفي لينقل لنا صوره الشعرية، ويمكننا بعد هذا ملاحظة مدى التمسك بالدين الذي ظهر بين الناس في هذا العصر، اذ كان الشعر بمدحه النبوي وسيلة لإظهار كثرة الخطوب واشتدادها على الأمة والتي وجدت في نبيها الدرع الحصين والسند المعنوي للوقوف ضد هذه الأهوال، بل إن الشعراء تناولوا بالتفصيل أفراد البيت النبوي وأتباع النبي الكريم. ومن الشعراء الذين مدحوا النبي الكريم ابن الزملكاني، والذي كان واضح المنحى شديد الاهتمام بالمقدسات النبوية، ومما قاله:

محمد خير خلق الله كلهم وفاتح الخير ماحي كل اشراك

سما بأخمصه فوق السماء فكم اوطا اسافلها من علو افلاك[4].

ظلت مثل هذه الاشادات بالكعبة وبالاماكن المقدسة تترد في قصائدهم الشعرية، بعدها بعدها يتم الحديث عن النبي الكريم، مع اختلاف في الأساليب حسب تعمق الشاعر في تجربته ووصفه لزياراته نحو مقام النبي الكريم. ورغم ذلك بقي الاشكال في طريقة التعبير وايصال المعاني غير مكتمل عند بعض الشعراء الذين عانقوا أغراض أخرى،

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص284

[2] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص25

[3] - المرجع نفسه، ص28

[4] - فوات الوفيات، 10/4 نقلا عن ياسين الايوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص129.

مثلا ظهرت بعض المدائح عند ابن نباتة ولكنها حسب البعض متكلفة، وأيضا عند ابن مليك وطبعا ما يميز هذا النوع الشعري في هذا العصر هو مبالغة الشعراء في وصفهم وتعداد المعجزات التي أحيانا تناقض قوانين الحياة مثل قول أحدهم:

وكم معجز لو رُمت في الشعر نظمه لصار قصيدي بالمديح مُـحمدا

فصلى عليه الله ما ذر شـــارق وما ناح قمـــرى الحمام وغرّدا [1]،

ويجب الحديث عن أبي حجة الحموي وبديعياته التي قالها في النبي الكريم، ومنها لاميته التي عارض بها كعب وهي مليئة بمختلف ضروب التورية والبديع ومطلعها:

في مقلتي لعيون الشهل تشهيل وما لموتي عند الخد تقبيل[2].

واذا مضينا إلى المغرب العربي فإننا نصدم بشعراء كانت لهم قصائد مدحية في النبي الكريم، بينوا خلالها شوقهم إلى زيارة قبره، ومنهم ابو السماط المهدوي (ت690ه) الذي قال مشتاقا إلى يثرب:

ولذكركم برد على طي الحشا تشفى به مـــرضاكم وتفيق

قوم بها طاب النسيم بطيبة حتى أنثنى كالمسك وهو فتيق[3].

ويتحدث شوقي ضيف عن كثرة شعراء المديح النوبي في المغرب العربي في القرن السابع، ذكر منهم ابو حمو موسى الذي اغتنم فرصة المولد النبوي ونظم قصيدة يقول فيها:

حياتي وموتي في هواكم وإنـــني أعلل نفسي فيكم بالأماني

فيا أهل نجد انجدوني على الهوى فاني في بحر من الشوق لجّي[4].

وايضا عبد الله البسكري الذي اشتهر في القرن الثامن ومما قاله:

دار الحبيب أحـــق ان تهواها وتحن من طرب إلى ذكراها

وعلى الجفون متى هممت بزيارة يا بن الكرام عليك ان تغشاها[5].

وبقي المدح النبوي ذائعا في العهد التركي، حيث تناوله العديد من الشعراء ومضوا يقدون قصائد كاملة في الاشادة بالنبي الكريم وبخصاله، كل بأسلوبه الخاص، ويتم ذكر بعض الأوصاف تتعلق بالعبادة كالسجادة والمسبحة والبساط، نذكر ابن النحاس الحلبي(ت1052ه) الذي تحول من حياة اللهو والخلاعة إلى الزهد والتصوف مع أواخر

---

[1] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص26

[2] -الدكتور ربداوي، عن ابن حجة شاعرا وناقدا، ص110 نقلا عن بيومي ياسين، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص131

[3] - ابن سماط المهدوي، الحلل السندسية، 508/2 نقلا عن شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، ليبيا...، ص300.

[4] - تاريخ بني زيان ملوك تلمسان،لأبي عبد الله التنسي، ص166 نقلا عن شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر ..ص211

[5] -تعريف الخلف 240/2 نقلا عن شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر.. ص213.

حياته، وكتب بعض القصائد في المدح النبوي بعدما انتقل إلى مجاورة بيت الله الحرام، ويؤكد الباحثون انه كان يقصر أبياته عن النسيب النبوي والتي ترد غالبا في مقدمات قصائده ومما قاله:

تذكر السفح فانهلَّت سوافحه وليس يخفاك ما تخفي جوائحه
صدع الهوى يا عذولي غير ملتئم يَذْيره بالبان من أشجاه صادحُه[1].

ثم يواصل الشاعر ليتحدث عن قبر النبي الكريم ومقامه ويمر إلى التضرع والمناجاه بعدها، والذي لاحظ في شعره هو ميل الشاعر إلى المزج بين الأغراض الشعرية وتداخل معانيها حيث يرد بعض الفخر بشعره ومدحه ذاته في قصائده جميعا، فقد كان يُخلط بين المدح النبوي وبعض الأغراض الأخرى خاصة الفخر والمدح العادي، وهو بهذا يخرج القصيدة من تبعيتها التقليدية نحو طور جديد، كما يخاطب الذات العلية.

ومن الشعراء الذي تناول غرض المدح النبي في هذا العصر ابن منجك باشا اليوسفي (ت1080ه)، لقد تحول الى المدح النبوي بعد وفاة والده وتغير احواله إلى الفقر وبعد اعتزال الناس له، وترك بعض القصائد القليلة في المدح النبوي يقول:

اليك يا رسول الله وجهت وجهتي لأنك أنـــت المنعم المتفضِّل
لا نصر إلا من جانـــبك يُرتضى ولا غيض إلا من يمينك يهطل[2]

ونضيف اين النقيب الحسيني (ت1081) والذي كان مقل في هذا الغرض قصير النفس، ينظ بعض الابيات في مناسبات دينية كالمولد النبوي الشريف، ولا يطيل في تعددا المناقب النبوية بل يشهد له بالدخول في صلب الموضوع والثناء على النبي الكريم ومما قاله:

محمد المختار أَشرف مُرسلٍ عليه صلاة الله ثم سلامـُه
نبي غدا للخلق خير مشفع يُحفُ به يومَ المعادِ اهتمامه[3]،

من الشعراء أيضا ابن معتوق شهاب الموسري (ت1087) وله مدائحه قليلة ومما قاله في قصيدة بلغت نحو خمسة وسبعين بيتا بعد زيارة لمقامه:

أمّلت فيك وزرت قبرك مادحا لافوز عند الله برضوانه
عبد اتاك يقوده حسن الرجا حاشا نداك يعود في حرمانه[4].

ويتحدث المؤرخون عن وجه شبه بين قصيدته المدحية وقصيدة البويصري في الوزن والقافية والمعاني الواردة وعرف أيضا بمدح علي رضي الله عنه في مدوحاته. توسع بعض الشعراء في المدح النبوي حتى وصل بهم الأمر الى اخترع البديعيات ، وقد اشتهر في هذا اللون البديعي لدى كثير من الشعراء حتى أن تقريبا لا يوجد شاعر لم ينظم

---

[1] - عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي، العصر العثماني، ص 99

[2] - المرجع نفسه، ص162/161.

[3] - عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي، العصر العثماني، ص254.

[4] المرجع نفسه، ص373

فيه لشدة هيامهم بالبديع والألوان البيانية مثل الشاب الظريف شمس الدين(688ه) وشرف الدين عبد العزيز الأنصاري (662ه) ولدينا شاعر آخر في زمن الدولة العثمانية هو ابن حبوس الحموي وكذا زين الدين بن الوردي 949(ه) ومما قاله هذا الأخير:

إذا أجس نظم الشعر فاختر لنظمك كل سهل ذي امتاع

ولا تقصد مجانسة ومـــكن توفـــــيه ولله إلى الطباع [1].

لقد امتازت هذه البديعيات النبوية بكثرة الاقتباس من أشعار السلف، وكأن الشاعرية تقاس بالأثر الوجداني الذي يحدثه الكلام في نفوس الناس. وبقيت الأشعار قائمة في المغرب العربي خلال العهد التركي، وهي لا تكاد تخرج عن معانيها القديمة وشوقها القديم ليثرب ومكة ولمقام النبي الكريم، ويورد لنا شوقي ضيف امثلة منها لعبد الكريم الفكون (ت1083ه) وله ديوان للمدح النبوي رتبه على حروف المعجم، وسعيد المنداسي الذي كتب قصيدة طويلة بعنوان العقيقة، ومما قاله:

هل رأيتم أو سمعتم حسنا في الورى من حسنه اكتمل

أحمد المبعوث فينا رحمة خير من قام بحق وكفـــل[2].

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص140

[2] - سعيد المنداسي، الديوان، تحقيق رابح بونار، ص40 نقلا عن شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر...، ص215.

مقياس: أدب عصر الضعف

المستوى: السنة الأولى ماستر(تخصص الأدب العربي الحديث والمعاصر)

المحاضرة الرابعة

الشعر الاباحي في عصر الضعف

1- الغزل

إن هذا النوع الشعري تقريبا يعد من أكثر الفنون تداولا وشيوعا في الشعر العربي منذ طلائعه الأولى، فهو إلى جانبه كونه متواجدا في أغراض أخرى في مقدمات القصائد او النسيب فأن أهم الفنون الشعرية على الاطلاق لدى العرب، إنه **"يتناول عاطفة الحب الانساني الخالدة بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها وانعكاساتها على حياة الشاعر المحب أو العاشق منذ تستهويه امرأة، فيقع فريسة لحبها وتملأ قلبه وجدا وشوقا إلى رؤيتها**[1].

شيوعه وسط العرب منذ الجاهلية بنوعيه يعكس اهتمامه بالمرأة معنويا وجسديا، ويرجع بعض الباحثين ذلك إلى مكانة المرأة التي لم تؤهلا لتبوء دورا ايجابيا في المجتمع واقتصار بروزها على اللهو والمتعة، لكن ذلك ليس بالسبب الوجيه، لأنه حتى وفي كل العصور شهدنا انشغال المرأة بالعلم، ففي عصر المماليك تذكر بعض الكتب **"اقبال النساء فيه على مجالس العلم والدين، اذ حرصت كثيرات على منهن على الذهاب إلى المجالس العلمية والدينية، حيث كن يجلسن في مكان منفرد عن الرجال لسماع الدروس الدينية"**[2]. مما يؤكد مشاركتها الفعالة في الحياة العلمية والدينية، كما سجل التاريخ أسماء لبعضهن ممن اشتغلن بنظم الشعر والنحو.

ومن الغزل مقطوعة لبدر الدين يوسف ابن لؤلؤ الذهبي(680ه) وهو يهيم صبابة في محبوبيته يقول: **ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن يعقوب والألحان عن اسحاق**

أنى تباريني جـــوى وصبابة وكآبة وأســـى وفيض مآقي[3]

كثيرا ما كان الشاعر يصور لنا مشاعره الحزينة المتألمة وأشواقه الفياضة، في قصائد عذرية تدور **في "فلك الشوق والصبابة والحنين واللوعة والاحتراق والأمل الشاحب أو الثابت والاستذكار والاستعبار والخوف من المصير المجهول يترقبه الحبيب والأطلال البالية او الدارسة وما يستلزم ذلك من أوصاف السفر وأدواته ومراحله قبل ذلك وأثنائه ملامح الحبيب وقسماته الجسدية والرموز والآثار التي خلفها**

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص199.

[2] - أحمد عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص34

[3] - شوقي ضيف، المرجع السابق، ص204

الحب بدرجاته المختلفة [1]. فالشاعر في قصائده يظهر مدى الحنين الذي يغمره نحو محبوبته من ذلك قول محار الحلبي(711ه):

ما بث شكواه لولا مسه الألم ولا تأوه لولا شقه الســـــقم

ولا توهم أن الدمع مهجتـــه أذابها الشوق حتى سال وهو دم[2]

ومن أجمل القصائد التي تطالعنا تلك التي كتبها الشاب الظريف بأسلوبه المثير ونغمه الموسيقي المؤثر، وكلماته الرنانه: **لا تُخف ما فعلت بك الأشـــواق واشرح هواك فكلنا عشاق**

فعسى يعينك من شكوت لك الهوى في حمله والعاشقون رفاق[3]

تمتلئ قصائد الشعراء بأبطال هذه العاطفة ممن يعيش الحب وآلامه مثل الحاجري وابن النبيه التي بقيت اشعاره الغزلية تغنى منها:

من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه عذبا فقد جهل المحبة وادعى

يا ايها الوجه الجميل تدارك الصبر الجميل فقد عفا وتضعضعا[4]

ويورد المؤرخون أبيات غزلية تنسب إلى كثير من المتصوفة في باب الغزل العذري مثل برهان الدين الجعبري(ت687ه) محب الدين الشافعي (ت694ه) وهذا يعود إلى أن حفظ أشعار النسيب والغزل كانت عادة كثيرا ما يلجأ اليها الدارسين، حتى أصبحت في العصر المملوكي سمة بارزة [5]. وبقي الغزل العذري يحاكي النماذج السابقة في الأسلوب والمنهج والكلمات، حتى إن صفي الدين الحلي يستحضر روح عنترة الغزلية في قصائده ومما قاله:

ولقد ذكرتك، والعجاج كأنه ظل الغني وسء عيش المعسر

فظننت اني في صباح مشرق بضياء وجهك أو مساء مقمر[6].

ورغم قلة الشعر الذي ألف في هذا العصر، إلا أن ما تم تلمسه هو تغير في النموذج الجمالي للأنثى بعد الانفتاح على الثقافات الأخرى واختلاط المجتمع العربي بسلالات بشرية من مختلف البقاع ، وبعد أن كان الشاعر يهيم بالعيون الواسعة والشعر الأسود الكثيف كما عند امرئ القيس أضحى هناك ميل نحو العيون الضيقة والوجه الأبيض والشعر الأشقر، ويحضرنا هن قول لابن نباتة المصري:

على ضيق العينين تسفح مُقلتي ويُطربني لا زينب ولا رَباب

---

[1] - ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص139.

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص204.

[3] - المرجع نفسه، ص212.

[4] - ديوان ابن النبيه، ص6 نقلا عن احمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية، ص 92.

[5] - أنظر ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص141/140.

[6] -ديوانه، ص407 نقلا عن ياسين الأيوبي، المرجع السابق، ص145.

فيارشا الأتراك لا سِرب عامر فؤادي من سُكنى السُّلوّ ضَراب [1]

ولابن نباتة غزل كثير لكنه لم يستقل في قصائد خاصة، إلا نادرا، فأغلبه كان عبارة عن مقدمات تتخلل باقي الأغراض الشعرية خاصة المدح، لذا فمنهجه كان تقليديا يجري على نمط قصيدة عمود الشعر، بعيدا عن التجديد رغم كثرة صنعته وتورياته ومما قاله:

وظبي له في أسرة الترك نسبة وفي الهند معنى من مضاء جفونه
كتمت الهوى في عشقه متفلسفا أصبح عشقي قائلا بكمونه[2]**.**

إذن النموذج الذي كان العرب يمثلون به مقياس الجمال عند المرأة تغير عما كان عليه، وتم تجاوز الهيام بالوجه الأبيض والشعر الأسود الكثيف كما هو الحال في قصيدة امرئ القيس والعيون الواسعة، إلى مقياس آخر بعدما كثر الاختلاط بالآخر الاوروبي والآسيوي، والتركي والفارسي، فظهر تغزل بالافرنجيات، وعيونهن الزرق وشعرهن الأشقر ومما قيل هنا قصيدة لعبد الوهاب الدمشقي:

لقد فتنتني افرنجية نسيم العبير بها يعبق
ففي ثوبها غصن ناعم وفي تاجها قمر مشرق
وإن تك في عينها زرقة فان سنان الفنا أزرق[3]

فقد تكون المحبوبة تركية أو افرنجية أو مغولية، ومما قيل في هذا السياق أبيات لابن الوردي في هيامه ببنت مغولية: **لي من بنات المغل من تفضح مني ما استترا**

وكيف حال مسلم أصبح في اسر التتر[4]**.**

ونلاحظ أن الشاعر حاول أن يمزج بين أوصاف من بلدان مختلفة وطبعا الجمع كان من مستجدات العصر الذي عاش فيه الشاعر لكثرة الأجناس التي وفدت مصر في العصر المملوكي، وتداخلها وغدا هناك تغزل بالنساء الدخيلات عن الأمة لأنهن كنت يتجولن سافرات مع اختلاطهن بالرجال في الأماكن العامة.

من الظواهر أيضا الميل إلى استخدام المصطلحات العلمية في الغزل، وقد أكثر من الشعراء بسبب الاختلاط الذي كان يحدث في العصر بين الأدباء والعلماء في مجالس العلم وكذا كثرة المعارف المنتشرة والتأليف، واعتبر ذلك من ميزات العصر أيضا، كانت الكتابة بنفس الأسلوب ولكن بنوع من الطرافة والتلاعب بالكلمات والتشبيهات الجديدة

---

[1] - ابن نباتة، الديوان، دار احياء التراث العربي، بيروت، ص28 نقلا عن محمد محمود سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ط1، منشورات ابن كثير، بيروت، 1999، ص 26.

[2] - ديوانه، ص484 نقلا عن محمود محمد سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ص25.

[3] - خريدة القصر، ج1، ص8 نقلا عن احمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية، ص91

[4]- ديوانه، ص 336نقلا عن نبيل خالد أبو علي، الأدب بين العصر المملوكي والعثماني، 1993، ص123.

كوصف العين بالنرجس والخد بالتفاح والأسنان بالؤلؤ والقوام بالغصن البان وغيرها، واكثر الاوصاف التي نالت الحظ الاوفر من جسد المرأة العيون والأهداب وجمال القوام وبياض البشرة. ولعل أكثر الصور التي تظهر مظاهر التحضر هو العناقات التي كانت تدور بين المحبين واللقاءات والفراقات والرسائل والصدود.

لقد كان **الفحش** سبيل بعض الشعراء ممن عكفوا على ذكر العورات والنوادر والدعابات، وتنوع بين ألسنة الشعراء ما بين ساخط وناقم على الآخر وبين محب فرح بوصاله، ومن الأمثلة قول أسامة بن منقذ": **ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا فليتهم حكموا فنا بما علـــموا**

ما مر يوما بفكري ما يريبهم ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم[1]

فإن كان بعض الشعراء يتسامون بحبهم عن الغرائز ، وهم في لوعة حقيقية إلى المحبوب، يظهرون مشاعر صادقة ومتالمة ولهفة بعد الفراق، فإن هناك نهج آخر يصب في الغزل لكنه مولع بالجسد وبالمفاتن، مولع بالعناق وبالوصال، أكثر اثارة وافتتانا بالمرأة، موضوعاته حول الجسد: **" قامة وبشرة ولونا ووجها بمختلف تقاسيمه وملامحه...وفعالا تصدر عن الجسد أو تمارس من خلاله وكذلك الأحداث التي تدور في فلكه ولأجله"**[2]. في هذا اللون يظهر نهج لدى بعض الشعراء ممن يمزجون بين الاباحية والمشاعر العذرية الصادقة، فهم لا يقدمون قصائد كلها في باب واحد، إذ يتعمدون المزاوجة وهذه من سمات العصر التي ظهرت في الغزل الاباحي، ومن ذلك قول الشاعر علي بن محمد بن مليك الحموي(ت917ه):

رشقتني من لحظها بسهـــام بعدما جردت عليَّ بنصاله

سالم القلب في الهوى مقلتيهـــا فانثنى قدهـــا يروم قتالـــه[3].

مال صنف آخر من الشعراء إلى التغزل بالغلمان والتذلل لهم، والتركيز على جمال وجههم ، وبهاء شكلهم، وتدللهم أمامهم، وهم بهذا لم يكتفو بالتغزل بالمرأة، بل انشغلوا بأي مليح أمامهم، ويظهرون ميلهم إلى اللهو والمجون والافتتان بالوصال، وقد ظهر عند ابن دفتر خون الذي كتب ديوان تغزل فيه بألف غلام سماه الغلمان، وابن منير الطرابلسي[4]. والشاب الظريف مما كانت لهم فلسفة اباحية، ودعوة إلى المشاركة في اللذات ومن ذلك قول التلعفري في صبي تركي :

من بني الترك كلما جذب القـــو س راينا في برجه بدر هالة

أوقع الوهم حين يرمي فلـــم ندر ر يداه ام عيناه النبالـــه[5].

---

[1] - ديوان اسامة، ص44 نقلا عن أحمد بدوي، المرجع السابق، ص91

[2] - ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص152.

[3] - نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص261 نقلا عن ياسين الأيوبي، المرجع السابق، ص153.

[4]- أنظر عمر موسى، الأدب في بلاد الشام، ص513.

[5] - النجوم الزاهرة، ج7،ص255 عن ياسين الأيوبي، المرجع السابق، ص154.

وقد عرف عن التلعفري ميله نحو استخدام الغزل في مقدمات مدحه أكثر من الانفراد بها في قصائد، وكذا ميله نحو الغزل المادي الحسي، ومما يذكره وصف للمحبوب الذي تجرد من ملابسه في حمامه، وهي مليئة بالتصريح نحو اللهو والافتتنان بالخلوة ومما قال÷

أفديه في الحمام من متـــجرد جالت مياه الحسن في أعطافه

يهتز كالغصن الرطيب اذا مشى منه معاطفه على أردافـــه[1].

تراه يسخر من استخدام الشعراء للمقدمة الطللية في وقت لم تعد القبائل تتعلق بالمكان وتغير الحياة، وكان يكثر من التغزل بالغلمان من الفرس والترك، بل إن غزله فيه صور مستحدثة بعيدة عن التقليد كالشمس والبدر والغصن، ومما قاله:

لو تنطق الشمس قالت وهي صادقة ما في فيها وما في الذي فيها

هي امثالها نورا وفرط ســـــــنا من اين املك معنى من معانيها[2].

والشذوذ والميل للغمان كان بسبب كثرة الجواري واللهو وكذا التفكك الأخلاق الذي أضحت عليه المجتمعات الاسلامية بعد الاختلاط العميق بباقي الحضارات، خاصة انتشار الرقيق الذين كانوا يتميزون بالملاحة والحسن البالغ، مما جعل الكثير من الفئات تعمل على استخدامهم في المجالس العلمية والمساجد وفي مجالس اللهو والطرب، وكان العصر المملوكي متميزا بكثرة الوافدين من الأجناس على الأمة العربية في مصر والشام، وباقي البقاع خاصة بعد الحملات الصليبية على العراق واشتداد الخناق على المسلمين بالأندلس، واشتهر هنا ابن الساعاتي، والتلعفري، والشهاب الشاغوري، والشاب الظريف. وقد ظهرت أشعار تكشف لنا ميل الرجال إلى الرجال وميل النساء إلى النساء يقول سيف الدين بن المشد:

بطل التناسل في الورى من غير شك وامتراء

فإذا الرجال مع الرجال والنساء مـــع النساء[3].

ويواصل الشاعر المجاهرة بالفحش، والمجاهرة بالعورات وباللذات من ذلك قوله:

كم رقدنا في كل مسلح حمام وصرنا من بعد ذلك لخلوة

أنت قسم خاضــعا لدي والا قمت من ساعتي أخذتك عنوة [4].

والأوصاف التي أطلقها الشعراء على الغلمان هي ذاتها التي نعتت بها المرأة، حتى أنك لا تدري إن كان المتغزل به رجلا او امرأة، فهم ذروا الشامة والبياض والعيون، والوجنة والقوام، وفي هذا يقول أبي بكر الجوهري في غلام اسمه عمرو:

أفدي غزالا له خال بوجنته مع عارض شبه وواو العطف ممدود

كانما الخال فوق الخد يحرسه حـــــذار سرقة عمرو واو داود[1].

---

[1]- ديوانه، ص216 نقلا عن عمر موسى، تاريخ الأدب العربي، العصر العثماني، ص317.

[2]- ديوانه، ص60 نقلا عن عمر موسى، الأدب في بلاد الشام، ص493.

[3]- الديوان، ص 12 نقلا عن فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ص333.

[4]- الديوان، ص46 نقلا عن فوزي محمد أمين، المرجع السابق، ص363.

لوحظ في العصر موجة من الخلاعة الماجنة من تجاهر بالمنكرات، الأمر الذي يفرض على الحكام فرض عقوبات عليهم، فكان **"أهل اللهو يجاهرون بلهوهم اذا كان السلطان ضعيفا، بغض النظر عن أفعالهم، ويستترون اذا كان السلطان قويا، يتبع مظاهر اللهو المحرمة ويمنعها[2].** فتوافر المناسبات والأماكن كالمتنزهات والحوانيت وسع من موجة الخلاعة والمجون وقد ذكر كثير من الشعراء هذه الأماكن التي يتم ارتيادها مثل دير طموية في الجيزة ودير الراهبات في حارة زويلة ودير البنات في حارة الروم وغيرها[3]. ومن القصائد التي قيلت هنا تلك التي تعود لابن دانيال متحدثا عن ابليس الحزين وزوال نعمته يقول ساخرا:

رأيت في النوم أبا مرة وهو حزين القلب في مره
وعينه العوراء مقروحة تقطر دمعا قطرة قطره[4].

ومما قيل في هذا النوع رغم المجون الظاهر على بعض الأبيات والقصائد، إلا أن الشاعر وكما قال الباحث **" لم يتهتك في شعره ولم يبتذل فظل أدبيا في مشاعره وفي الفاظه وتلك ميزة جميلة يجب التنويه بها بالنسبة إلى اغزال العصور السابقة، فغاية ما يصرح به الشاعر سرده لقسمات الوجه والشعر والرضاب والقد والنهد والعناق[5].** وهنا يمكن أن نورد امثلة في هذه الاوصاف لبعض الشعراء مثل قول شهاب الدين محمود:

الورد خد والبنفسج عارض والنور ثغر والقضيب قوام
والراح ريق أو حديث رائق والنقل لثم والقيان حمام[6].

وبقي الأمر على عهده في العصر العثماني، فقد امتلأت به الدواوين، ومع اتساع الدولة ورقعتها، كثرت الأشعار التي قيلت في النوع العذري خاصة، حتى قيل إن حجم ما كتب يفوق ما كتب في باقي الفنون الأخرى، ولنا نموذج للشاعر يوسف ابن اسكندر(ت929) الذي يقول:

الورد من جنات خدك يقطف والشهد من جنبات ثغرك يرشف
وقوامك المياس أزهى ان ثنى عطفيه من غصن الخلاف وأهيف [7].

---

[1]-خلاصة الأثر،69/1 عن نبيل خالد أبو علي، الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني، ص140.

[2] - محمود محمد سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ص58.

[3]- أنظر الخطط ج3، ص26 نقلا عن فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول"قضايا المجتمع والفن"، دار المعرفة الجامعية، 1993، ص336.

[4]- التذكرة الصفدية ، ج14، ص64 نقلا عن فوزي محمد أمين، المرجع السابق، ص333..

[5]- ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ط1، ص140/141.

[6] - فوات الوفيات، 93/4 نقلا عن ياسين الأيوبي، المرجع السابق، ص156

[7] - الكواكب السائرة، 315/1 نقلا عن ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص157.

ولنا نماذج كثيرة لابن معتوق، أكثرها تجعل من الغزل مقدمات لقصائده المدحية، والبوريني، وأحمد بن شاهين، ومحمد الكنجي وأحمد العطار الذي يذكرنا بقصيدة أبي ذؤيب الهذلي ومما قاله :

فرحت ودمع العين تجري غروبه على الخد مني والحمام تـسجع

فلا كبدي تهدأ ولا الشوق مقصر ولا لوعتي تخبو ولا العين تهجع[1].

وتكثر مقتطفات هذه الأشعار التي تركز على الخمر والمجون، ونجد بعض الشعراء يفتخرون بمذهبهم النواسي مثل يحي بن علي الكتبي قائلا:

انا نائب الشرع النواسي دعني وباطيتي وكاسي

أهوى الغزالة كاعبا وأهيم بالظبي الخماسي[2]

فهذه الخمرة تجلو عن القلب الهموم، فكما أن تيار من الزهد والتصوف كان وسيلة للشعراء والناس كافة للهروب من الوقائع الأليمة في العصر وكوارثه، فكذلك كانت الخمرة وسيلة للهروب إلى الخيال والاستغراق في عوالمها، طبعا قد يكون الحديث عنها مجرد تخيلات من الشاعر لا ممارسات على المستوى الفعلي، أو عبارة عن صور فنية فقط لكن لا اختلاف على المستوى اللفظي، يحضرنا أيضا شعر ابن نباتة في الخمريات لأنه كان يسير على نهج ابي نواس وأراد ان يختصر معانيه ومما قاله في هذا السياق:

عوض بكأسك ما أتلفت من نشب كالكأس من فضة والراح من ذهب

وأخطب إلى الشرب أم الدهر نسبت أخت المسرة واللهـو ابن العنب[3].

وكثيرا ما يقترن وصف الطبيعة بوصف مجالس اللهو والخمرة في الهواء الطلق وخاصة منتزهات الغوطة والأرياف، وفي هذا السياق نلتقي بشعراء أسرفوا في وصف هذا الفضاء البهيج مثل أبي الرقعمق الانطاكي الذي عرف بفحشه ومن قوله:

توهمت أمرا فلم انبس بحرف وناديت بالأكوس [4].

فاللهو والمجون كان طابع الفئة الأرستقراطية، أكا العامة من الناس فحسبهم ما كان يعيشونه من لهو في الأعياد، فكان ظهور الدين الكازروني(697ه)الذي كان يعرض لهو البغداديين وظلت الخمرة تتردد على السنة الشعراء في عهد الوزير المهلبي مثل أبا القاسم التنوخي:

راح من الشمس مخلوقة بدت لك في قدح من نهار

هواء ولكنه جامد وماء ولكنه غـير جار[1]

---

[1]- نفحة الريحانة، ج1/506 نقلا عن نبيل خالد أبو علي، الأدب العربي بين العصرين المملوكي والعثماني، دار مقداد للطباعة، غزة، 2007، ص109.

[2] - خريدة القصر، ج1، ص10 نقلا عن احمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية، ص102.

[3] - ديوانه، ص 21 نقلا عن محمود محمد سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ص59

[4] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص260

وكثيرا ما يخلط الشاعر بين الغناء والخمرة أو بين المرأة والخمرة، وكانوا في ذلك مقلدين في أوصافهم ومعانيهم، أحيانا يصفون لونها وطريقة شربها، وأحيانا يركزون على تجليتها للهم والكدر، وأحيانا يميلون إلى الحديث عن تعثر حظه ومشاكله، ويعجبون مما يبحثون عن أمور أخرى بعيدا عنها مؤثرين المناصب أو الصلاة ومما قيل هنا ابيات للقيراطي يقول:

نأتي إلى اللذات من أبوابـــها ونحج للصهباء من ميقاتها

يا صاح قد نطق الهزاز مؤذنا ايليق بالأوتار طول سكناتها[2].

وهناك من وصف الفتيان وهم في سكرتهم ولهوهم مثل قول ابن لؤلؤ الذهبي:

باكر إلى الروضة نستجـــلها فثغرها في الصبح بسامعني

والنرجس الغض اعرتاه الحيا فغض طرفا فيه سقام [3].

وينفرد التلعفري منذ وقت مبكر بمدح امراء الشام وميله نحو الخمرة والقمار، ومما قاله:

أقلعت إلا من العـــقار وتبت إلا من القـــمار

فالكأس والقمر ليس يخلو منها يميـــني ولا يساري [4]

من الشعراء ما خص ديوانه لهذا الغرض دون أن يبرحه كما هو الحال بالنسبة للشاعر عبيد الله الباهلي، الذي عنون ديوانه **"نهج الوضاعة لأولى الخلاعة"** ومنهم ابن الصاحب الذي تفنن في المجون في عصره ومن شعره: **يا نفس ميلي إلى التصابي فاللهو منه الفتى يعيش**

ولا تملي من سكر يوم إن أعوز الخمر، فالحشيش[5]

أن العصر لم يكن متزمتا رغم كثرة الأهوال المحيطة بالأمة وان كانت كما يقال روح الدعابة والهزل بدأت تقل يوما بعد يوما بسبب كثرة الحروب التي عملت إلى حد بعيد في اطفاء نار المجون واخماء روح الدعابة. وحين نمضي إلى زمن العثمانين، فإننا نجد قصائد الحب والغزل شائعة على السنة الشعراء ومن الامثلة قول فتح الله بن النحاس الحلبي(1052ه):

يا حبيبي أعد ليـــالي قرب قد نقصت وخل عنك الدلالا

ليت شعري لما تباعدت عني أدلالا يكون ذا أم مـــلالا[1]

---

[1] - ابن خلكان، ج366/3 نقلا عن شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة، العراق، ايران، ص398.

[2]- ديوان القيراطي، ص 44 نقلا عن فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول"قضايا المجتمع والفن"، دار المعرفة الجامعية، 1993، ص333..

[3] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص261

[4] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة،... ص393

[5] النجوم الزاهرة، ج7 ص378-380 عن أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية، ص105.

هو يتغزل بالقد الممشوق والحسن اللطيف، ويذكر قلبه المتوهج إلى رؤيتها، وأيضا كان من الذين يمزجون الغزل بالمدح ويستهلون به قصائدهم.

نكاد نعثر على أجواء من الموسيقى والطرب في المغر ب العربي خلال هذا العصر، حيث توافد على تونس منذ عصور مبكرة آلات غنائية مثل الطبول والمزامير، وتوسعت منذ أن نزل بها زرياب سنة205ه)، بل ظهر في القيروان **"حيا خاصا بالملاهي والطرب يقصده أهل الفرجة وكنان مجمعا للمغنين والضاربين على الالات الموسيقية وكان اهل الخلاعة والمجون يختلفون اليه[2].** وكثر المغنون في عهد الدولة العبيدية والصنهاجية، وتزايدت مجالس الأنس والطرب في قصورهم، يتقدمهم عبد الوهاب حاجب المنصور الأمير الصنهاجي، ويفد إلى تونس أمية ابن أبي الصلت في عد الدولة الصنهاجية وكان شاعرا غناءا، وزادت الهجرات الأندلسية الغناء واللهو اتساعا بعدما نقلوا معهم مظاهر الحضارة، وقيل إن أمير الدولة الحفصية كان يأخذ معه فرقة موسيقية للغناء والطرب معه في تنقلاته [3]. وظهر شعراء برعوا في الغزل وفي اظهار مفاتن المرأة والتغني بجسدها ففي تونس ظهر أحمد الليلياني (659ه) وينسب له أشعار لطيفة منها قوله:

هذا العذيب وهذه نجد أين الذي يقضي به الوجد

ما هكذا حال المحب اذا أعلام ربع حبيبه تبدو[4]،

لقد استحضر الشاعر أطلال محبوبته فحق له البكاء على طريقة الشعر العربي القديم ويأمل في ننيل وصالها، ومن شعراء تونس خلال العهد العثماني محمد الماضور (ولد1150ه) كانت له اشعار مكتنزة بالحس المرهف والمشاعر المحبة، ومما قاله:

يا ظبية قد اشعلت في قلبي نيـرانا وخلفتني مع الأشواق حيرانا

صبري ودمعي لما حملت من شغفي هذا تلاشى وهذا صار غدرانا[5]

بالنسبة لدول المغرب العربي الأخرى في هذا العصر كالجزائر، فقد ذكر شوقي وجود بعض الغزليات العذرية فيها، واختيار الشعراء للنوع الذي يتسامى فيه الشاعر عن الغرائز ويكتفي بالحديث عن الحرمان الذي يقاسيه، وقدم أمثله للشاعر عبد الكريم النهشلي، وابن قاضي ميلة، وابن خميس الذي قدم بعض الملامح الجسدية ومال نحو ذكر المفاتن في قوله:

طرقتك وهنا النـــجوم كأنها حصباء درّ في بـــساط أخضر

بيضا اذا اعتكرت ذوائب شعرها سفرت فأزرت بالصباح المسفر[1]

---

[1] - ديوانه، ص93 نقلا عن عمر موسى، تاريخ الأدب العربي، العصر العثماني، ص119.

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، ليبيا...، ص154.

[3] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، ليبيا، تونس، صقلية 155.

[4] - المرجع نفسه، ص248.

[5] - شوقي ضيف، المرجع نفسه، ص250.

ويورد الكتاب أمثلة للشاعر محمد بن عمر المليكشي الذي كان يعيش في القرن الثامن هجري وللشهاب بن خلوف ثم تقدم إلى العهد العثماني وذكر بعض الشعراء ممن كانت له أشعار غزلية مثل محمد القوجيلي ومحمد عبد الرحمن الحوضي ومحمد بن أحمد الاريسي وابن علي الذي قال:

فسبحاك من سواك في الحسن صورة لها اعترفت بالحسن حور كواعب
وصدر بدت رمانتاه كحـقتي لجين ونحـر مشرق وترائـب[2]

أما من المغرب، فيذكر أسماء منها ابن عبدون المكناسي (ت658) ومالك ابن مرحل الذي عاش ايام العصر المريني (ت699) ومحمد الوجدي عماد من العهد التركي، ومما قاله هذا الأخير: **واذا نظرت لوجهه ولعينيه قلت الجمال من الخدود قد انفجر**
عيني وإذني في النعيم بنظرة وبلفظـة منه وقلبي في سقر[3]

ومعظم الأشعار التي يوردها الكاتب تصب في النوع العذري وقد قيل أن البيئة المغاربية منذ القديم لم تكن تميل إلى اللهو والمجون بسبب طبيعة السكان الذين ألفوا حياة الحروب، والتقلبات، وكذا كثرة الطرق الصوفية المنتشرة في البلاد.

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر ...،ص174.

[2] - المرجع نفسه، 182.

[3] -النبوغ المغربي، 3/ 72 نقلا عن شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر، المغرب، موريتانيا، ص437.

مقياس: أدب عصر الضعف

المستوى: السنة الأولى ماستر(تخصص الأدب العربي الحديث والمعاصر)

المحاضرة السادسة

الأوزان الشعرية الشعبية في عصر الضعف

(الدوبيت، المواليا، الكان كان، والقوما)

منذ القديم والشعر العربي كان الصورة الحقيقية القريبة من تطلعات المجتمع ، فقد كان يعبر عن فرديته بقدر ما يعكس احتياجات المجتمع العاطفية والنفسية، والأكثر قربا منه كان الشعر بطابعه الشعبي الذي يلون طبقة العامة ويتزين بلغته وأمثاله، والذي يتأتى في سهولة ويسر ويتغنى بتقاليد الشعب وحاجته.

الفنون الشعرية الشعبية تعددت ألوانها وأغراضها خاصة في عصر الضعف بعدما اقترب الشعر من لغة الناس اليومية، فقد "**حملت الأشعار لغة فصحى لم ترتفع عن مستوى الشعب، بل كانت تقترب منه قربا شديدا، ولعله من أكبر الأدلة على ذلك، أننا نجد لهذا العصر في كل بلد عربي شعراء أميين لا يقرؤون ولا يكتبون يشاركون خصبة في الشعر العربي غير واجدين في ذلك أي مشقة أو أي عسر**"[1]، ويطلق عليهم شعراء شعبيون، لقد كان أشعارهم ترد في بعض الفنون الشعرية التقليدية كالزهد والغزل والمجون مرفوقة بالنوادر والفكاهة.

انتشر الشعراء الشعبيون في معظم البقاع العربية بسبب عدم انفصال بين الشعر عن الشعب، فكثرة المجالس والدورات التي كانت تقام في المساجد وعدم وضع حواجز لحضور هذه الحلقات العلمية أدت إلى كثرة النظم بالعامية منذ القرن السادس، وقد ظهر ذلك على لسان صفي الدين الحلي الذي نظم في الفنون الشعرية كالمواليا والزجل والقوما والكان .

والنتيجة أن الأدب توسعت مداركه ومراجعه وتياراته الأدبية، وقد غذت أصوله تراث تقليدي متوراث وآخر كان تتسرب إليه نفخات الروح وخصوصيات الأقاليم الجغرافية المختلفة التي ينتمي اليها المؤلفين من مشرق الأرض ومغاربها. فبغداد كانت قبلة العالم الاسلامي وحاضرة الدولة العباسية، وأما المغرب والأندلس فساهم كما قيل في إرجاع البضاعة ومنحها تميزا آخر مأخوذا من ثقافات المنطقة، وقد ظهر ذلك في الفنون المستحدثة وكذا طبيعة الأساليب المنتهجة. وقد اشتهرت اليمن بالشعر الحميني الذي لا يلتزم قواعد الفصحى النحوية والاشتقاقية كما لا يلتزم عروضها وتكثر فيه

[1] - مرسى الصباغ، قراءة جديدة في الشعر الشعبي العربي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2002، ص21.

الممسمطات والموشحات[1] . وكثر الشعر الشعبي لدرجة أنه لم يبق هناك مناسبة الا وقيل فيه الشعر .

لقد سبب الاختلاط والتمازج الثقافي انتقال فن الموشحات والأزجال من الأندلس إلى المشرق ببنيته الفنية المميزة ذات الأوزان الشعرية المعروفة، والمكونة من أقفال وأغصان توحدها القافية والوزن، لتنفرد الخرجة بلغتها الدارجة، وهنا لنا مثال للنصير الأدفوى:

يا طلعة الهلال هل لا لي في الحب منتظر
يا غاية الامال أمـا لي من الهوى مفر [2]

من الشعراء الوشاحون الغزاري (ت710ه) وكان شاعرا من الشام ومن شعرائها المعدودين في عصره، والشاعر كان يعتبر التوشيح فنا مستقلا عن الشعر له أصوله الشعرية ولعل أجمل ما قاله:

يا ليلة الوصل وكأس العقار دون استتار علمتماني كيف خلع العذار
اغتنم اللـــــذات قبل الذهاب
وجـــر اذيال الصـــبا والشباب
واشرب وقد طابق كؤوس الشراب [3]

ومن الوشاحين كذلك السراج المحار (ت711ه)، وقد كان من شعراء الشام، حيث ذاعت شهرته في نظم الموشحات واستخدمها في أغراض مختلفة ومعروف في أشعاره البساطة في التركيب والرونق الجميل والميل إلى الألفاظ الواضحة، ومما قاله:

كتمت الهوى جُهدي وهل أنا كاتم
وقد جد بي وجـدْي وشوقي لازِم
ونمتْ بنا عـــندي دموع سواجِم [4]

ويطالعنا في هذا العصر وشاحون آخرون مثل ابن حجة الحموي، وكان المحار الحلبي أروع وشاح أنجبته الشام على مر الأزمنة (ت 711ه) ومما قاله:

ما ناحت الورق في الغصون إلا ما حب على تغريدها لوعة الخريف
هل ما معنى لي مع الحبايب ايب بعد الصدود
أو هل لايامنا الذواهب وأهب أن تـــعود
لكل مصقولة الترائب كاعب هيفاء رود[5].

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات ، الجزيرة..، ص90.

[2] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج1، ص419

[3] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص241

[4] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص291

[5] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص134

في زمن الأيوبيين والمماليك نلتقي بوشاحين مختلفين وهما الصلاح الصفدي(764ه) وشمس الدين محمد علي الدهان(721ه) ومما قاله الأخير:

بأي غصن بأنه حملا بدر دجى بالكمال قد كملا اييف
فريد حسن ما ماس أو سفرا
إلا أغار القضيب والعمرا
يبدي لنا بابتسامه دررا[1].

ونمضي إلى زمن العثمانيين لنقف عند أبي بكر العمري وأبي بكر العصفوري وابن النقيب(1081ه) الذي كتب موشحا يقول فيه:

يا ليالي السفح من عهد الصبا باسقى بمغناك صوب الديم
كم تسرقت بها بين الربى خلسا مرت كطيف الحلم [2].

ومن الفنون التي انتقلت إلى المشرق أيضا فن الزجل وهو الصورة العامية الخالصة للموشح، يتخذ شكله ومادته وبناءه من الأقفال والأغصان مع استخدام عروض الشعر الفصيح ونظام الموشح في التركيب والبساطة. وفيه نجد خصائص اللهجة المحلية، مثالنا عند ابن جابر البغدادي الذي قال:

لابد تظهر بين الناس قلندرى محلوق الراس
تلبس عوض دا الكتان وحلتك صوفا الخرفان
أو دلق أو تصبح عريان
تغدو تدور مع أجناس محلقين الروس أكياس
ما يعرفوا إلا الحضرة والنبك لا شرب الخمرة
مثقالها بألف جرة [3]

وقد كان الزجل أكثر شيوعا في الشام ومن شعرائه المشهورين علاء الدين بن المقاتل. ثم شاع في البلدان العربية بعد ذلك فنون أخرى كالدوبيت القادم من الفرس والكان كان والمواليا، والتي شاعت في البلاد العربية مع القرن السابع هجري. كثر التأليف في هذه الفنون الشعرية الشعبية منذ وقت مبكر حين لتصبح القصيدة بذلك ذات بنيات محددة حسب رغبة الشاعر.

1-المواليات الشعبية

يتحدث المتخصصون في الأدب والنقد عن وجود صلات بين المواليا والموشح، فكما **" أن الموشح هو كلام منظوم على وزن مخصوص استمد تطوره من الرجز كذلك، فإن**

---

[1] - المرجع نفسه،، ص131

[2] - المرجع نفسه، ص132

[3] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج1، ص425/426

الموال هو كلام منظوم على وزن مخصوص استمد تطوره من الرجز "[1]. وكلاهما يعدان من محاولات تبسيط الشعر العربي واخضاعه لمقتضيات الغنائية والشعبية في المشرق والأندلس.

إن أول من اخترع هذا الفن الشعبي أهل واسط وهو يجري على وزن بحر البسيط، تكون شطره معربة مثله أربعة شطور بقافية واحدة[2]، وسبب التسمية كما يشاع أنه سهل النظم، لقصره ولكون لغته هي لغة بسيطة متداولة بين الناس. وقد امتلأت بساتين بغداد بألفاظه البسيطة واللطيفة يغينها عمالهم من العبيد، في بساتين النخل لتمضية الوقت وللتعبير عن انشغالاتهم، كنوع من الاستجداء والاستعطاف بسبب حالهم الرثة وأجسادهم المتعبة وكذا تدهور وضعهم الاجتماعي بسبب غياب معايير العدالة الاجتماعية.

ويقال إن هذا الفن الشعري الشعبي كان معربا في البداية، بوزن موحد وقافية مختلفة بروي واحد، لكن البغداديون نزعوا منه الإعراب وأرجعوه ملحنا، وسبب ذلك حسب الروايات أن اتباع البرامكة بعد نكبتهم اخترعوه، لأن هارون الرشيد حرم عليهم رثاؤهم باللغة الفصحى، وهناك من يورد قصة مشابهة مفادها أن **"جارية من جواريهم كان ولاؤها أقوى من حضر الخليفة فراحت تطوف بقصورهم المهدمة، وتتمتم بأبيات من الشعر المنغم البسيط الموزون، تختتم كل مقطع منها صائحة وامواليا، مشيرة بذلك إلى اسيادها الذين نكبوا فقالت:**

يا دار أين ملوك الأرض أين الفرس واموليا
أبن الذين حموها بالقنا والترس واموليا[3]

فراح الشعراء يرثونهم بلغة عامية وتنتهي عبارة الشعراء بكلمة "يا موليا" فعرف بهذا الاسم .وبعدها أصبح قلما يصاغ بلغة فصيحة، كما نظموا فيه قصائد بموضوعات نقيضة تجمع بين الجد والهزل، الدنيوي والآخروي، كذا اختلاف اللفظ بين الجزل والرشيق حسب ميولات الشاعر وثقافته ومذهبه الأدبي. وترد في كل أغراض الشعر التقليدي من مدح ووصف ورثاء وغزل كما عند رشيد الدين سعيد بن علي البصراوي الذي قال في الزهد:

كيف اعتمدت على الدنيا وتجريبك أراك فلك تراها كيف تجري بك
مازالـــت الخادعة تدنو فتغري بك حتى رمـــتك بابعادك وتغريبك[4]

وكان هذا الفن قائما أيام المماليك والعثمانيين، وشاع في مختلف الأمصار والمناطق كالشام ومن شعرائها **عز الدين بن السويدي** (ت 690ه) ومما قاله:

البدر والسعد ذا شبهك وذا نجمـــــك والقد والحسن ذا رمحك وذا سهمك

---

[1]- مرسى الصباغ، قراءات جديدة في الشعر الشعبي العربي، ص60.

[2] - المرجع نفسه، ص61.

[3]- ابن خلكان، وفات الأعيان، ج1، ص408،نقلا عن عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص575.

[4] - النجوم الزاهرة، ج8، 367 نقلا عن عمر موسى باشا، المرجع نفسه، ص581.

والبغض والحب ذا قسمي، وذا قسمك والمسك والحسن ذا خالك وذا عمك[1]

ولما وصل ديار مصر ، تفنن فيه أهله وأصبح فيه العجيب والغريب، مختلطا بثقافتهم وقريبا من عواطفهم وواقعهم، ومن الشعراء عبد الغني النابلسي الذي ينسب له نحو 80 مواليا في ديوانه ومما قاله في غرض التصوف وحب الذات الالهية:

الباطن السابق الظـــاهر هو المسبوق والكل واحد فكن أعلى من العيوق

وأخرج عن الكل فأنت الكل يا معتوق أما الجميع هو الـــخالق أو المخلوق[2]

وقد نظم أيضا خاصة في الزجل الغزلي الذي كان قريبا من الفحش ويسمى **البليق**، وهي منظومة زجلية لكن موضوعها الأساسي لا يخرج عن الفكاهة والسخرية الخفيفة، حيث "**يكون البليق بشكل قريب من بناء الموشح والزجل، فهو يحتوي على المطلع والأغصان والخرجة أيضا، ويكثر فيه الجناس والتورية والتضمينات، فهي منظومة زجلية شعبية في روحها ولفظها هزلية في موضوعها ومعانيها، غالبا خفيفة في بنائها، قصيرة ليس لها طول الموشح ولا الزجل، وكان المقصود منها أن تقوم بدور محدود من التعبير الخفيف الساخر**[3] . ونظم فيها العامة في مناسبات مختلفة، وممن اشتهر في هذا المجال الشيخ الشمس الحفني الشافعي الخلوتي :

خطر علي غزالي مر ما اتكـــلم فوق جفونه وقلبي والحشا اكلم

آش كان يضره اذ بالراس لي سلم حتى أسر مهجتي لولا السلام سلم[4]

ومما قيل أيضا أشعار لابراهيم العمار، وله أبيات قالها مداعبا زوجته، يقول:

لما جلوا عرسي وعايتنها ووجدتها من كل عيب يقال

فقلت للدلال ما ترى؟ فقال ما أضمن سوى الحلال[5]

وللكاتب أشعار عدة في البليق تكاد تملأ ديوانه ومما قاله أيضا:

رمى أصاب صميم القلـب زين الزين وأصبح مضني أخـــشى حلول الحين

وكنت قبل خلي لم أشك وشك البين سالم من العشق حتى صابني من العين [6]

ولعل أكبر الشعراء الذين نظموا في الشعر الشعبي هو ابن سودون في القرن التاسع هجري، بسبب علمه الواسع وتحصيله لمختلف المعارف، وقد تنافس الناس في رواية دعاباته وهزلياته التي جمعها في ديوانه نزهة النفوس ومضحك العبوس، وله قصائد في المواليا جمعه مع الزجل ومما قاله: **عجب عجب هذا عجب بقرا تمشي ولها ذنب**

ولها في بزيزها لبن يبدو للناس إذا حلبوا [7]

---

[1] - المنهل الصافي، ج1، ص33 نقلا عن عمر موسى باشا، المرجع السابق، ص ن.

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص293.

[3] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، ج1، ص433.

[4] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، مصر، ص390

[5] - المرجع نفسه ، ص392

[6] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، مصر، ص393.

[7] - المرجع نفسه، ص397.

وقد ينظم المواليا في الفكاهة والهزل ويسمى **القرفيا**، ويقدم صورة عن بعض المأكولات والأشربة الشائعة في مصر أنذلك. أما النوع الثالث فهو **المكفّر** وهو ينظم في الحب الالهي والمدح النبوي، للشيخ الشمس أيضا أمثلة في هذا النوع منها:

بالله يا شيخ دع عنك الهوى واسلم من كل ميل ووافى عهدهم أسلم

والزم حمى سادة من امهم يســـلم واسلك سبيل التقى يوم اللقا تسلم [1] .

ويغلب على ألفاظ المواليا استخدام كلمات غير معربة والجناس في القوافي ومختلف ظواهر البديع اللفظي. ولهذا الفن فنية خاصة تتحدد في عدم تنافر الحروف وتوافر التوافق والمحسنات التي تخلق تناغما داخليا ليظهر منه الرباعي والخماسي والسداسي وغيره، وكذا اكتسب أيضا تقسيمات حسب اللون وحسب القص والغناء وحسب العدد.

2- الدوبيت

من الأبنية التي شاع استخدامها في المجتمع العربي خلال عصر الدويلات والإمارات فن الدوبيت، وقد ظهر هذا النوع الشعري منذ العهد العباسي على يد أبي نواس وأبي العتاهية، ثم انتشر في مصر والشام، وكان معروفا عند الفرس باسم الدوبيت، وهو يعني في شطره الأول - الدو - أي اثنين **"دو بيت"** ويسميع العرب الرباعيات و، **"الرباعية أربعة شطور تؤلف بيتين، وتتحد الشطور الأول والثاني والرابع في القافية، وقد يتحد مع تلك الشطور الشطر الثالث في القافية وقد يختلف"**[2] تكتب الرباعية غالبا في البلدان بلغتهم الخاصة الدارجة.

ويؤكد بعض المؤرخين والأدباء وجود صلات موجودة بين الدوبيت السوداني وما يعرف بالدوبيت الفارسي، فرغم أن البعض يؤكدون عبر **" كل من يعرف تقطيع العروض العربي أنه لا صلة اطلاقا بين الوزن الذي نظم فيه السودانيين الدوباي وأطلقوا عليه هذا الاسم وبين ما نعرفه عن وزن الدوبيت الفارسي ونظموا فيه.... [3] ،** إلا أن الصلات التي نشأت بين البلدين بسبب التجارة والرحلات، جعلت الدوبيت ينتقل إلى السودان ويصطبغ بصبغته .

ويتحدث المؤلفين والنقاد عن وجود ثلاثة أنواع له، فالأول يكون مقفى في أشطره الأربعة ويسمى بذلك دوبيت كامل، هنا يمكن ايراد مثال لفتيان الشاغوري ومما قاله:

الورد بوجنــيتك راه زاهر والسحر بمقلتيك واف وافر

والعاشق في هواك ساه ساهر يرجو ويخاف فهو شاك شاكر[4]

---

[1] - المرجع نفسه، ص390.

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات ، الشام، ص129.

[3]- مرسي الصباغ، قراءات جديدة في الشعر الشعبي العربي، ص54.

[4]- ابن خلكان، وفات الأعيان، ج1، ص408،نقلا عن عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص575.

وغالبا الشاعر الذي التزم به يحافظ على القافية التي بدأ بها أول رباعية، ليستمر تماسكها الايقاعي أساسها الصوت الواحد لحرف الروي، وإذا كان بثلاث قوافي موحدة بينما الشطر الثالث غير مقفى فهو أعرج، ويمكن أن نجد له صدى عند الشاب الظريف في قوله:

قاسيتُ بك الغرام والهجر سنين ما بــين بكا وأنين وحنين
أُرضيك ولا تزداد إلا غضباً الله كما أَبلى بك القلب يُعين[1]

والثالث أيضا يكون بأربعة قوافي لكن ما يميزه هو أن يكون قافية واحدة فيها هي الثالثة تكون مطلقة، وبسبب الزحافات التي تدخل عليه قد يزيد عدده. ويسرد لنا عمر موسى باشا في كتابه أمثلة كثيرة لابن قسيم الحموي، والكلبي والتعلعفري الذي يقول:

ما أحسن ان تكون من تهواه في حضنك والنعاس قد غشاه
أوصيك اذا تنرجست عيناه قم مــص لسانه وقبل فاه [2]

واستحدثوا لها وزنين هما: الأول هو **"فعلن فعلن مستفعلن مستفعلن"** والثاني هو **"فعلن متفاعلن فعلن فعلن"**. ومن الواضح أنهما بعيدين عما تركه الخليل بن أحمد الفراهيدي فيما يخص أوزان الشعر السنة عشر قد انتشر بسرعة في هذا العصر ، ونظم فيه الكثير من الشعراء ممن اصبحت لهم دواوين كاملة فيه حتى لم يكد يخلو منه ديوان شعر مهما كان اتجاه صاحبه، كعبد المنعم الجلياني، والعماد الكاتب الذي ذكر له ديوان صغير دمع فيه دوبيتاته. ويلقانا ابن مماتي في زمن الأيوبيين ومما قاله:

يا غصن أراك حاملا عود أراك حاشاك إلى السواك يحتاج سواك
قل لي أنهاك عن مجيئك نهاك لو تم وفاك بست خدَّيك وفاكْ [3]

شاع مثل هذا النوع الشعري الشعبي بين أهل مصر، كما هو الحال بالنسبة للشاعر ابن أبي الأصبع الذي قال: **قبلت ثنايا كجمـــان العقد منـــه وعدلت عن نضار الخد**
نادى ماذا؟ فقلت طبع عربي يشتاق أقاح الروض دون الورد [4]

واستخدمت الدوبيت في موضوعات شتى خاصة كالمدح النبوي، والمواعظ والزهد وللحديث عن حب الذات الالهية، فتراه يشكو من عدم الوصال، ويعلن شوقه والدموع مدرار كما فعل الحاجري في القرن السابع هجري7، ويظهر أيضا في الأغراض التي كانت قريبة من الغناء كالغزل والخمرة وهنا يتألق أبا المحسن بن البوشنجي وابن الجوزي في القرن السادس، ومما قاله في الحب والغزل: **الحب يقول لا تشع أسراري والدمع سيل هاتكا أستاري**
والشوق يزيد ، لا على المقدار وأناري من هذا الهوى وأناري[1].

---

[1] - ابن شاكر وفات الوفيات، ج3، ص389 نقلا عن محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، ج3، ص102.

[2] - ديوان التلعفري، ص6 نقلا عن عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص577.

[3] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات ، مصر ص174

[4] - المرجع نفسه، ص175.

وظل شائعا بين الناس في العهد العثماني كما عند بهاء الدين العاملي وعبد الغني النابلسي وابن علي الشيباني الذي كتب اراجيز واحدة منها على خمسين دورا كل دور فيها رباعية منفردة على تعبير شوقي ضيف ونأخذ مثالا لعلي بن المظفر الوداعي :

لما حجب الكرى عن الآفاق وانقاد على العدا على العشاق

ناديت وقد تزايدت اشواقي يا غصن رضيت منك بالأوراق[2].

3-الكان كان

يعد الكان كان من الفنون الشعبية التي تهمل الإعراب واللفظ الفصيح، متجاوزا ذلك إلى استخدام اللحن والألفاظ العامية، إنه من الفنون التي كما يقول صفي الدين لحلي **"اعرابها لحن، وفصاحتها لكن، وقوة لفظن وهن، حلال الاعراب بها حرام، وصحة اللفظ بها سقام، يتجدد حسنها اذا زادت خلاعة، وتضعف صنعتها اذا أودعت من النحو صناعة، فهي السهل الممتنع، والأدنى المرتفع[3]**

يتكون الكان كان من أدوار كل دور أربعة شطور ، تشترك شطور المنظومة الثانية والرابعة بكل دور في قافية واحدة مردفة قبل حرف الروي بأحد حروف العلة، ودائما الشطر الأول من كل بيت أطول من الثاني[4]. بمعنى أن الشطر الأول فيه يكون في الغالب أطول الأشطر، وهو غير مقيد بأي وزن من أوزان الشعر العربي التقليدية،ومما تم ذكره أبيات في الوعظ والارشاد والنصح:

يا قاسي القلب مالك تسمع وما عندك خبر ومن حرارة وعظي قد لانت الاحجار

افنيت مالك وحالك في كل ما لا ينفعك ومن حرارة وعظي قد لانت الأحجار[5]

وينظم في مختلف المواضيع الاجتماعية التي تظهر بعض الخرافات والأباطيل والمراجعات، اخترع الكان كان من طرف البغدادين في منتصف القرن الخامس، وذلك لتناقل مختلف الأخبار والحكايات التاريخية والاجتماعية، **" فلفظ الكان كان يطلق على نفس المعنى الذي تحمله عبارة كان يا ما كان في سالف العصر والأوان والتي هي شائعة في كثير من أنحاء العالم حيث كانت تتكلم به العجائز لأحفادهن بنظم اعتاد الفن القصصي أن يبدأ به"[6]** لكنه بعد ذلك نظم كما هو الشائع في الأغراض التقليدية المعروفة في الساحة العربية الشعرية وخاصة في المواعظ والزهد، وقد تفنن فيه ابن

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة، ص329

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص130

[3] - صفي الدين الحلين العاطل الحالي، ص6 نقلا عن عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص588.

[4] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة ص426.

[5]- مرسي الصباغ، قراءات جديدة في الشعر الشعبي العربي، ص74.

[6]- المرجع نفسه، ص73.

الوردي الذي تمكن من التأريخ لكثير من أحداث العصر الكبرى منها كالطاعون الذي ضرب الشام سنة 749ه، ومما قاله:

أعوذ باللـــــه ربي من شر طاعون النسب
باروده المستعـــــلى قد طار في الأقـــطار..
يدخل إلى الدار يحلف ما أخرج إلا بأهـــلها
معي كتـــاب القاضي بكل مـــــن في الدار[1]

ومن الشعراء الذين ذاع صيتهم في القرن السابع ابن الجوزي وشمس الدين الكوفي، وكان القصائد الشعرية معظمها تدور حول مناظر وأحكام وأمثال وتجارب سابقة يتم رويها للاستفادة منها أو اظهار اتساع معرفهم، خاصة بعدما شاع الاختلاط في هذا العصر وانعدمت الحواجز بين المثقفين والواعظين والعلماء ممن كانوا يحاضرون في المساجد دون شروط، إذ يمكن لأي كان حضور مثل هذه الندوات والحلقات الأدبية والفكرية والدينيةن وغالبا ما يلتحق بهم لنحاة والفقهاء ممن كانوا يروون الشعر والأحاديث، لذا كثر التقارب بين الشعر والأدب والعلوم والشعب وأضحى في كثير من الأحيان يصور عواطفه وهواجسه وانتصاراته، وأعياده وهزائمه وحياته بشكل عام. ويسمى عند المصريين بالزكالش، ويورد محمد زغلول مثال لأحد جلساء الصالح رزيك يقول:

النار بين ضلوعي ونا غريق في دموعي
كفى فتيلة قنديل أموت غريق وحريق [2]

وقد لقي اهتماما واسعا في العراق والشام ومنه قول البغدادي:

لما تزايد وجـــــدي فيكم وقل اصطباري
وعرفتـــــكم عداي وقلـــت الحركات

***

يا حاضرين بقـــلبي يا غائـــبين عن النظر
متى يجيـــني مبشـــر من عندكم بقدومكم
ويفرحون أصدقائي وأكـــمد الشمات[3]

من الواضح أن هذا النوع كان يحاول أن يسرد الكثير من القصص التي تجلب الوعظ أو الارشاد او تضع بعض النصح والأحكام للمستمع، ومع ذلك فقد أكد الباحثون أنه استخدم في موضوعات أخرى تمس واقع الحياة الاجتماعية.

4- القوما

[1] -تاريخ ابن الوردي،302/2 نقلا عن محمد زغلزل سلام، الأدب في العصر المملوكي، ج1، ص445.

[2] علي بن ظافر ، بدائع البدائع، 133 نقلا عن محمد زغلول سلام، المرجع نفسه، ص442.

[3] - مالجامع المختصر، 68/9 نقلا عن محمد زغلول سلام، المرجع نفسه، ص443..

نظرا للقبول الذي حضي به الشعر الشعبي في البقاع العربية، والتقارب الذي حدث بين اللغة العامية واللغة الفصحى، وكذا ظهور أغراض نالت الشهرة من هذا الفن كالموشحات والأزجال فقد ازداد اقبال الشعراء على الفنون الشعرية ذات الطابع الشعبي، خاصة مع اتساع البقعة الاسلامية وكثرة الاختلاط وشيوع اللحن، واضطراب كلام العرب، حيث صار للعامة أدبهم الذي يستمتعون به ويعبرون فيه عما يجول في خاطرهم وعما يعايشونه في حياتهم. ومما قيل في امتهان الشعر وقوله دون تمكن من اللغة ولا معرفة بقواعدها ما ذكره أبو الحسن الجزار:

وإن الشعر دون ما علاه قدرا ولاسيما اذا كان شـــعري
لاني مـــا قرأت له صحاحا ولا نحوا على الشيخ ابن برى[1]

يتكون القوما من أربعة شطور يتحد أولها وثانيها ورابعها في القافية، بينما نلمس الاختلاف في الشطر الثالث، ومعروف أن هذا الوزن يخرج من بحر البسيط .اخترعه البغدادين في دولة العباسين برسم السحور في شهر رمضان على يد ابن نقطة سنة 575ه) وأصله قوما قوما للسحور استعدادا للصوم . وهنا يقول ابن الأثير : **"بلغني أن قوما ببغداد من رعاع العامة يطوفون بالليل في رمضان على الحارات وينادون بالسحور، ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر، وإن لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب، وسمعت شيئا منه فوجدت فيه معاني حسنة مليحة ومعاني غريبة"**[2]. وكانوا يختمون كل بيتين منها بدور أو كلمة قوما للسحور ومن هنا أخذت اسمها وشاعت في البلدان العربية ومن الشعراء **أبو العلاء بن مقاتل الحموي** (ولد 674ه) ومما قاله:

قلبي يحب تياه ليس بعض إلا اياه فازمن وقف حياه يرصد على محياه
بدر السما لو يطبع من رام وصالو يعطب[3].

له وزن مثل مستفعلن فعلان وآخره مرتين ياتي فاعلاتن مستفعلن وربما متفاعلن متفاعلن او مستفعلن فاعلان او فاعل فعلن. يكون القوما ذا شكل متحد الوزن اي الاشطر الاربعة متحدة القافية ومنه قول الشهاب الحجازي: **يا طالبا الغفران**

قوما إلى الرحمن
لتنظر العين منك

---

[1] - مجدي محمد سمش الدين، فنون أندلسية في الأدب العامي المملوكي، ج1 الهيئة العامة لقصور الثقافة، دط، 2004، ص58.

[2]- ابن الاثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ط1، البهية ص30 نقلا عن مرسي الصباغ، قراءات جديدة في الشعر الشعبي العربي، ص75.

[3] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص293.

عينان نضختان[1]

وقد تتحد القافية ويختلف الوزن وهنا الاشطر الثلاثة متفقة ويختلف الباقي ومنه قول أحدهم": **صرتم حكية**

شرحها ينقل الي

انتم هتكتم عرضكم

فأنا أش عليا

أنا أش عليا [2]

ولقي القوما نفس مصير باقي الأغراض الشعرية الأخرى التي كان تنظم لغرض معين ثم تتسع لتشمل باقي الأغراض التقليدية خاصة تلك التي تصور واقعهم اليومي.

[1]- مرسي الصباغ، قراءات جديدة في الشعر الشعبي العربي، ص76.

[2]- المرجع نفسه، ص76.

مقياس: أدب عصر الضعف

المستوى: السنة الأولى ماستر(تخصص الأدب العربي الحديث والمعاصر)

المحاضرة السابعة

خصائص الشعر في عصر الضعف

إن الأدب صورة عن مقتضيات العصر التي تسعى بأي شكل من الأشكال إلى التأثير فيه، وحمله على الاستجابة لظروفه بتغيرات تُدخلها في جانبه الشكلي والمضموني، لذا **"كانت الفنون والآداب تعكس بدرجات متفاوتة أحوال المجتمع، وتشي بما غاب في طيات الزمن من أخباره وممارساته بصورة لا يؤديها التاريخ الذي يحكي الأحداث الهامة، واهتم بأهل القمة من الحكام وبطانتهم وأعمالهم في جدهم ولهوهم أحيانا** [1]. فالأدب يتشكل من ما يهمله التاريخ من حياة الناس البسيطة وعواطفهم وهواجسهم.

وقد ظل الشعر يتدهور شيئا فشيئا منذ أواخر القرن الرابع وطوال القرنين الخامس والسادس، حتى أضحت العلل واضحة فيه واختلت موازينه في القرن العاشر ، ولم يعد يجري على فصاحة وبلاغة الشعر القديم . ولذلك جملة من الأسباب وأكثرها حسب الباحثين متصل بظروف الأمة الاسلامية آنذلك التي كانت تئن تحت الحملات الصليبية والفتن الداخلية. ولعل أكثر من اختل في الشعر حينئذ هو فقدانه تلك التقاليد الحسية من أسماء للاماكن والأشخاص والأشياء التي سكنت وجدان الشاعر منذ القديم. بحيث ساهمت البيئات الجديدة في ادخال مفاهيم ورموز أخرى إلى المجتمع العربي، راحت تزاحم بنيات النص الداخلية ورموزه القديمة، خاصة عند شعراء الزهد والتصوف والمدح النبوي الذي استعان بالرموز الصوفية وراح يهيئ القصيدة لاستقبالها.

لقد رمي الشعر في هذه المراحل الزمنية بالركاكة والضعف والانحطاط خاصة مع تراجع اهتمام الناس بالشعر التقليدي. وتقدمت الكتابة الفنية على حساب الشعر، خاصة وأن الكتاب تمكنوا من ايجاد أدوات خاصة تفوقوا بها على الشعراء مما جعلهم يتبوءون المكانة الاجتماعية والفكرية على حساب الشعراء، وانفردوا بأهم المراتب السياسية والاجتماعية.

والمعنى أن الشعر لم يحضى باهتمام المحترفين الذين امتلكوا أساليب الكتابة واللغة وراح يجري على ألسنة العامة من الناس، ممن راح يتخذ من الشعر وسيلة للتسول الأدبي أو اثارة الشكوى والتعبير عن أوضاع البؤس التي يعشها المجتمع، إذن كان لغياب السليقة والقدوة والمنافسة الشريفة بين الشعراء سببا في تردي الشعر وابتعاد العقول

[1] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص9

المبدعة عنه. كما لا ننسى ضعف الثقافة ودخول اللحن والألفاظ الاعجمية وشيوع العامية التي اوهت اللغة وأضفت عليه عنصر الجمود .

وتذكر الكتب عدم عناية السلاطين في هذا العصر بالشعر خاصة وأن معظم هؤلاء الحكمام كانوا بعيدين عن النسب العربي، فهم غرباء في الجنس والطباع والثقافة، مما أبعدهم عن الاهتمام بإثارة جو المنافسة بين الشعراء وبالتالي تحفيز نظم الشعر ، بل إن البعض منهم كان يعتبر الشعر وسيلة المتسول الذي تجري عليه الصدقات، لذا نجد احجاجا من بعض الشعراء على هذا الوضع يقول الجزار:

أمولاي ان طباعي الخرو ج ولكن تعلّــمتُه من خمولي

أتيت لبابك ارجو الغنى فأخرجني الضرب عند الدخول [1]

إن الأتراك لا يفهمون لغة الشعر، فيصبح التقرب من الملوك أمرا مستحيلا، ومما قيل في هذا الصدد: **أكلف نفسي في كل يوم وليلــة همومًا على من لا أفوز بخيره**

كما سوَّد لقصَّار في الشَّمس وجهه حريصا على تبيض أثواب غيره [2]

وبالنسبة للموضوعات، فأكثر ما انشغل به الناس في هذا العصر والشعراء خاصة هو حال الأمة الاسلامية وسط تكالب الأعداء عليها، لقد طرحت قضايا كثيرة تخص مصيرها ومعاركها وانتصاراتها ومظاهر الدمار التي عمت بقاع الأمة، وسنحاول فيما يلي أن نستعرض بشيء من التفصيل خصائص الشعر في عصر الضعف.

1- من ناحية الألفاظ والأساليب

ومع تغير المسار الحضاري والوضع السياسي واختلاط الأمة بسيول بشرية مختلفة تغيرت اللغة في كثير من صورها ومفرداتها وبعض ألفاظها، لم تعد تلك اللغة المنتقاة الصافية التي تقارب فصاحة القرآن الكريم لقد انتقلت أليها الكثير من مفردات الشعوب المفتوحة، **"فالعربية ببلاد فارس والعراق تأثرت بالفارسية التركية، وكلما اتجهت شرقا زاد أثر الفارسية والتركية والهندية، وكان تأثرها بالشام أكثر بالرومية اليونانية واللاتينية مع عناصر مستوطنة من اللغات السامية القديمة، سريانية وآرامية وغيرها، وفي مصر زادت عناصر قبطية ومصرية قديمة".** [3].

وازداد الأمر مع توسع الحملات الصليبية ونزوح العناصر البشرية إلى بلاد العرب، وظهر ذلك بو ضوح في كتابات العصر من مفردات وتراكيب، وحتى آثار الثقافة المسيطرة ، بل أضحى تقريبا لكل طبقة لغتها الخاصة، وكانت فصاحتها تضيق كلما اقتربنا من الطبقة الواسعة من الناس، وهنا يقول عمر فروخ: **"إن الأسلوب قد ضعف كثيرا، وركَّ التركيب في بعض الأحيان، ودخل فيه ألفاظ وتعابير قريبة من**

---

[1]- محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص21

[2] - المرجع نفسه، ص21.

[3] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص79

العامية، وتبع ذلك تكلف أوجه البلاغة "[1]، ولم يستطع أكثرهم الفلات من تأثيرات العامية في لغة الكتابة، وهذه الظاهرة كانت تتضح وتزداد كلما قدم الزمن ليتسرب إلى كل المؤلفات الأدبية والعلمية آنذاك.

امتد الأمر أن دخلت كلمات أعجمية تركية وفارسية وارمينية وتتارية إلى الشعر، وأحدث ذلك ظهور نوع من الشعر سماه المدارسين بالملمع ذالك الذي ينظم بلغة ولهجات أخرى، لكن يظهر فيها بشكل واضح كلمات عربية قد تصل في البيت الواحد إلى أربع كلمات. وعموما، بقي القرآن الكريم المنبع الأساسي للغة في العصر بسبب الظروف العامة التي جعلته المرجعية الوحيدة في ظل استمرار تكالب التتار على الكتب، والحملة الواسعة ضد مؤلفات المسلمين، وقد تمسك به أكثر النحويين والقضاة والمؤلفين خاصة ضياء الدين ابن الأثير الذي حث الكتاب على ضرورة جعله المرجع الأساسي لهم.

تعددت صور الاستعانة بلغة القرآن الكريم، وأكثر الشعراء منه خاصة في القرن السابع هجري، ومن الشعراء الشرف الأنصاري الذي يقول:

قسما بشمس جبينه وضحاها ونهار مبسمه اذا جلاها

وبنار خديه المشـــعنع نورها وبليل صدغيه اذا يغشاها[2]

من الاقتباسات ما كان يورد الآيات على حالها كما هو الحال بالنسبة لابن نباتة الذي يقول: **ما مصرُ الا منزل مستحسن فاستوطنوه مشرقاً أو مغرباً**

هذا وان كنتم على سفر به فتيمموا منه صعـــيدا طيبا [3]

وهناك من يميل إلى تزين معانيه بها واستخدام السياق العام يقول أحدهم:

أما السَّماح فقد معنى وقد انقضى فتسل عنه ولا تسل عن خيره

واسكتْ اذا خاض الورى في ذكره حتى يخوضوا في حديث غيره[4]

ولم يقتصر التضمين على القرآن، بل شمل الأماكن القديمة والأبيات الشعرية الجاهلية والاسلامية، كقول صلاح الدين الصفدي:

أفي كل يوم منك عتب يسوءني كجلمود صخر حطه السيل من عل

وترمي على طول المدى متجنبا بسهميك في أعشار قلب مقتل[5]

وكان ميزة في غرض المديح النبوي التي عاد بها أصحابه إلى زهير، ولعل أكثر الأبيات المقتبسة كانت لأبي نواس وأبي العلاء المعري والمتنبي. من النقاد من يرى في هذه الاقتباسات نوعا من السرقة الشعرية، فعمرو فروخ يقدم أمثلة منها تلك التي قالها شهاب الدين العسقلاني(ت852ه) قام فيها بسرقة أبيات من قصيدة ابي تمام، يقول فيها:

---

[1] - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس هجري الى الفتح العثماني، ص614.

[2] - الديوان، ص 515 نقلا عن عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص626.

[3] - ترجمة الخاطر للسوطي ورقة 83 عن محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص82

[4] - شرح لامية الصفدي ص2 ج35 عن محمد زغلول سلام، المرجع نفسه، ص83

[5] - يوسف السباعي، تاريخ الأدب العربي، بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين، ص150

رجعت مكانة آل عمّ المصطفى لمحلها من بعد طـــول تناسِ
فرعٌ من هاشم في روضـــــةٍ زاكي المنابت، طيب الأغراسِ

وهو يطابق بيت ابي تمام: **فرع من هاشم في تربة كان الكفئ لها من الأغراس**[1]

إن الركاكة التي سيطرت على اللغة والكلمات، حسب بعض الدارسين كان بسبب نظم الشعر على ألسنة شعراء بعيدين عن تذوق الأدب من فقهاء وحكام وفلاسفة أو مبتدئين، ولتغطية عجزهم لجأ البعض إلى الاقتباس. ومن الميزات اللفظية التي ظهرت في شعر هذا العصر حسن التعليل، ويعده عمرو موسى باشا من أجمل المحسنات البديعية المعنوية، لما فيه من طبع شاعري أصيل وروح شعرية مبدعة، ويرود أمثلة للحلبي، وابن الساعاني، مثل قوله في أسرى هربوا إلى مرج أخضر فيه نرجس يخطف العيون، فتم ايجادهم:

وكيف ينجو بها هــزيم وأرضـــها تنبت العيونـــا[2]

كما لجأ الشعراء إلى مراعاة النظير، وهو **أن يجمع في الكلام بين الأمر وما يناسبه**[3]، ولابن الساعاتي أمثلة كثيرة وكذا مجير بن تميم، ومما قاله هذا الأخير:

لو كنت تشهدني، وقد حمى الوغى في موقف مـــا الموت فيه بمعزل
لترى أنابيب الـــقناة على يـدي تجري دما من تحت ظل القسطل[4]

ومن الخصائص أيضا حسن التخلص وكذا براعة الاستهلال، وهناك من يميل إلى تسميته بحسن الابتداء، فيكون المعنى غير غريب ولا غامض متقيد بشروط الاجادة، وهناك مثال لابن عنين افتتح قصيدته بأبيات لطيفة مؤثرة يقول فيها:

ماذا عن طيف الأحبة لو سرى؟ وعليهم لو سامحوني في الكرَى
جنحوا إلى قول الوشاة وأعرضوا والله يعلم أن ذلك مُـــنفرَى[5]

وهناك المدح بما يشبه الذم، وكذا استخدام الألغاز ، وكذا مراعاة ترتيب الكلمات ترتيبا منطقيا، ويمكن أن نتوقف لنورد مثال لابن نباتة:

أعدت زمان البشير والجود والثَنا إلى أن ملأت العين والأنف والفَما[6]

إذن، كانت الألفاظ أكثر النواحي التي حظيت باهتمامٍ وبابتكار في هذا العصر، الذي سمي بعصر الصناعة اللفظية والزخرفة البديعية، قد ظهر هذا المذهب لدى الشعراء جميعا دون استثناء، حتى أضحى ملمحا وصورة عن العصر، وذلك لسهولة نظمه على حد تعبير ابن خلدون: **"حتى إنهم جعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرعوا له ألقابا وعدوا له أبوابا، ونوعوا أنواعا، وإنما حملهم على ذلك الولع بتزيين الألفاظ، إن**

---

[1] - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس هجري الى الفتح العثماني، ص888

[2] - عمرو موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص617.

[3] - المرجع نفسه، ص618.

[4] - ابن حجة ، الخزانة، ص123 نقلا عن عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص 619.

[5] - ابن حجة، الخزانة، ص 6 نقلا عن عمر موسى باشا، المرجع نفسه، ص636.

[6] - يوسف السباعي، تاريخ الأدب العربي، بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين، ص146

علم البديع سهل المأخذ، وصَعُبَ عليهم مآخذ البلاغة والبيان[1]، ففي هذا العصر كانت المحسنات البديعية دليلا على مقومات الكاتب أو الشاعر، وضرب من مقدراته البلاغية، لذا اشتغلوا بالجناس والمثال التالي هو لابن مرحل (ت 716ه) ومما قاله:

لا تأسفن على مال تفـــــرقه أيدي سُقاة الطلا والخرد العُرب

راحٌ بها راحتي في راحتي حصلت فتم عجبي بها وازدادَني العجبُ[2]

وقد اشتهر ابن دانيال، والشهاب المنصوري، والبويصري، والتلعفري، ولابن نباتة شعر كثير مزخرف وكثير الصنعة وقد استحسنها كثير من الدارسين في شعره، يقول أحد الباحثين:" **"إن ابن نباتة وإن تأخر في السبق عن فحول المتقدمين عصرا، فقد تقدم عليهم ببديعه وغريبه بيانا وسحرا، وتفقه في الطريقة الفاضلية لمذاهب ما سلكها المتقدمون"**[3]، وظهرت مختلف الأنواع البديعية من جناس وطباق وتورية في قصائدهم على تعدد موضوعاتها، ومما قاله ابن نباتة:

أبكيك للحسنين الخَلق والخُلق كما بكى الروض صوب العارض الغدق[4]

ومن الذين أحسنوا التورية يوسف ابن لؤلؤ الذهبي في قوله مُظهرا حزنه:

وأنا الذي أملي الجوى من خاطري وهي التي تُملي من الأوراق[5]

فالأوراق هنا في المعنى القريب، تلك التي يتم تدوين الخواطر عليها، والمعنى البعيد التي يخفيها هي أوراق الشجر ، وللشاعر التعلفري ابيات منها قوله:

عجوز قد انسب وهي بكر ومن عجيب عجوز وهي بكر[6]

لم يقف الأمر عند حدود استخدامها في الأبيات الشعرية، بل ظهرت حولها مؤلفات وكثر الاهتمام بها، ويقدم لنا عمرو موسى باشا نماذج تعود للصفدي وابن حجة وابن خاتمة وفيها بينوا مفهومها وأهميتها وسحرها النفاث، كما قدم أمثلة كثيرة عن التورية نأخذ منها نموذج لعلاء الدين الوداعي الذي توجه إلى البلقاء للقاء صديق لهم لكنه غادر إلى مكان اخر قال:

أتيت إلى البلقاء ابغي لقياكم فلم أركم فازداد شوقي واشجاني

فقالت لي الأقوام، ما أنت قاصد لرؤياه قلت الشمس، قالوا بحسبان[7]

وقام البعض باستخدام لغة العلوم الأخرى ومصطلحاته كالفلك والطب والرياضيات والفلسفة مع تعديل للدلالة الأصلية لتوافق السياق العام، وهذا ما جعلهم يستعينون

---

[1] - مقدمة ابن خلدون، ص1215 نقلا عن ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص422.

[2] - ياسين الأيوبي، المرجع السابق، ص420.

[3] - يوسف السباعي، تاريخ الأدب العربي، بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين، ص140

[4] - المرجع نفسه، ص142.

[5] - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس هجري الى الفتح العثماني، ص621.

[6] - يوسف السباعي، المرجع السابق، ص143.

[7] - ابن شاكر ، فوات الوفيات، ج2، ص109، نقلا عن الأدب في بلاد الشام، 613

بالاختزال والتلميح والاشارات، وعمدوا إلى معالجة قضايا نحوية وبلاغية وفقهية وعروضية وغيرها في قصائدهم، يقومون بشرحها وتبسيطها وحتى استغلالها لتقوية معانيهم، كالمبدأ والخبر والممنوع من الصرف والنكرات، والمجاز وغيرها ولنا مثال للابن حجة الحموي حين هنأ السلطان بالملك:

أيا ملكا والله صار مُؤيدا ومنتصبا في ملكه نصب التمييز[1]

ويضيف عمر فروخ قضية الاطالة في عدد الأبيات، فقال: لقد " **أطال الشعراء القصائد التي تزيد عن مائة بيت كما في البديعيات عادة كالبردة للبويصري وكعدد من قصائد صفي الدين الحلي وكالمنظومات التي ترد فيها فروع العلوم كالنحو والفقه**[2]**.** كما ظهر تجاه يحاول ان يقارب اللغة تجاوز القواعد النحوية وتبيح اللحن، انها لغة العوام التي تستحضر واقعهم اليومي وحياتهم الخاصة.

2-من ناحية الأوزان الشعرية

كثيرا ما اهتم الشعراء العرب الوزن والقافية في قصائده الشعرية، وسعوا إلى ايجاد تناسق بينها وبين المعاني لتكون وحدة متجانسة، اي ما أسماه النقاد ائتلاف المعنى مع الوزن، ومن الطبيعي أن ينساق المقلدون وراء الاتجاه التقليدي الذي يحافظ على الوزن طوال القصيدة ووحدة القافية، وموالاة الشعراء الفحول القدامى خاصة العباسيين، وكما عهدنا فأنهم مالوا إلى اختيار الأوزان الطويلة في أغراض معينة خاصة الوصف والرثاء والمدح وغيرها، واختصت الاغراض الأخرى بالأوزان الخفيفة كالخمرة والهجاء مثلا.

ولعل أكثر من التزم بالسنن التقليدية هم شعراء الأغراض التقليدية ممن قالوا في المدح والفخر والرثاء والمناسات المختلفة، فهم عرفوا ظاهرة الحفاظ على نظام القصيدة ووحدة الوزن والقافية والتمسك بالأوزان المعروفة وعدم مفارقة الصور التقليدية من التشبيهات والاستعارات والتمثيلات الجارية في موضوعات الشعر مديحا وغزلا ووصفا[3]، أما الأغراض الشعرية الشعبية، فقد تمكنت من الخروج نوعا من العروض التقليدي والمزج بينها وبين ايقاعات التوشيح ونموذجنا هنا هو قول البهاء زهير:**من لعبت به الشمول ما ألطف هذه الشمائل**

مولاي يحق لي بأي عن حُبك في الهوى أُقاتل [4]

لقد تأثرت بدخول بعض الايقاعات الجديدة المأخوذة من البيئات التي يتواجد فيها الشاعر أو التي تأثر بها وساهمت في تكوينه الثقافي والمعرفي خاصة في أقصى المغرب والأندلس الذي عرف تنويعات ايقاعية مختلفة خرجت على عروض الشعر العربي وقد

---

[1] - ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكين، ص423.

[2] - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس هجري الى الفتح العثماني، ص620.

[3] - أنظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص12.

[4] - المرجع نفسه، ص91.

وفد ايقاع الموشح إلى الشام، وباقي البلدان العربية وأسهم في ادخال ايقاعات شعبية سهل النظم على منوالها او ايجاد ايقاعات قريبة منها مثل الدوبيت والمواليا والرباعيات.وشاعت ظاهرة المقطوعات وهي قصائد نظمها أصحابها لنقل أحوالهم النفسية ومواجدهم في أبيات لا تزيد عن سبعة أبيات، يقول هنا ابن دانيال :

دعوتني للعرس يا سيدي فكدت أن أحضر من أمس

وها أنا اللـــيلة في داركم فالكلب لا يهرب من عرس[1]وهناك الأشطر الخامسة التي كانت ترد على بحور الشعر التقليدي تكون فيها القوافي الأربع متشابهات، أما الخامسة فمطلقة مثل قول ابن الدنيسر الدمشقي:**وحق لهواك وجدي لا يحول وجسمبي قد أضرَّ به النحول**

وقلبي والفؤاد غدا يقـــــول وأرى الأيام صبغتها تحـــول

وما لهواك من قلبي نُصول [2]

اما الدوبيت، فشاع كثيرا عند الصوفين، وتكون الموضوعات المتداولة فيها غالبا في الغزل والنسيب والوضع الاجتماعي العام، وعموما كان للقصيدة التقليدية ايقاعها الخاص، لكن العصر أدخل عليها الترصيع بين مصراعي البيت، وغيرها من الأساليب التي تدخل انغاما موسيقية تزيد من جمالية القصيدة. وقد ازدادت العناية بالايقاعات في القصيدة والعناية بالصوت المتسق حتى تثير اهتمام المستمع، مع ايراد صور مختلفة من البديع والتناظر والتقابل واللعب بالقوافي ولنا مثال لرشيد الدين النابلسي:**كتمَ الحشى معذب موجع على المدى وصب الفؤاد مغرم**

بناره يلتهـــــب ملذع ما خمدا أوارا والضَّرم

حُكِّم فيه أشنب ممنع من الفدا فهو الأسير المسلم

مبعد مـــجنب مودع تعمدا وهو القريب الأمم [3]

وهذا يعني أن الشعراء لعبوا كثيرا باللفظ في الكلام الذي يكون على اي معنى. وظهر في العصر ما أسماه النقاد ذوات الأوزان، وهي **"نوع جديد، تتألف كل قصيدة فيه من عدد غير محدود من الأبيات، وكل بيت فيها يتكون من أجزاء، يترك أمرها للشاعر نفسه، وهي تتبع البيت الأول في قوافيها وعددها، ويشترط في الجزء الأخير من الأبيات أن يكون على روي البيت الأول كما هو الحال في نظام القصيدة التقليدي"**[4]، وهذه القصائد لا تختلف في قراءتها عما ألفناه، لكنها أيضا تقرأ عموديا وانتشرت في القرن السابع ومن الشعراء ابن قسيم الحموي الذي يقول:

قل للأمير أخي النـــدى والنائل الهطَّال للشعراء والقــصَّاد

لازلت تنتهك العـــــدا بالذابل العسال في الأحشاء والأكباد

---

[1] أنظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص93.

[2] - المرجع نفسه، ص96.

[3] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص114

[4] - عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص647.

ووقيت من صرف الردى والنازل المُقتال بالأعداء والـــحُساد[1]

وتتحدث الكتب عن الشاعر صلاح الدين القواس الذي كتب قصيدة عنونها ذات الأوزان،وهي تقرأ على نواحي كثيرة، وتعتبر محاولات من العصر للتخلص من الوزن العروضي دون جدوى، لذا قلدوا موشحات الأندلس وأزجالها مع بعض التغيرات البسيطة واستحدثوا فنونا أخرى قريبة من الشعر العامي. دخلت إلى الشعر أيضا ظاهرة الغناء والتوشيات الصوتية التي تعمل على بث انغام موسيقية داخل اشطره مثل التقطيعات والتجانس الصوتي ومختلف الزخارف الصوتية التي اكسبت الشعر تجانسا مع الالحان لكن كان ذلك على حساب المعاني، مما جعل بعض الأشعار عبارة عن حلى جاهزة خاوية المعنى ذات خلل وفكاكة.

3-من ناحية الصور والأخيلة

ان الصور الشعرية والتخييل هي العنصر الأبرز في الشعر، وهو حين يتكامل مع باقي العناصر الشعرية الأخرى يكون لنا بناء موسيقي، يحاول أن يمارس عنصر الايحاء في المتلقي، وتكون هذه الصور مأخوذة من مرجعية الشاعر الثقافية والمعرفية، أو تكون مخزونة في ذاكرته استقانا من اطلاعه على النصوص الأدبية القديمة، ومنها ما هو ناتج عن واقعه اليومي.

وقد مال أغلب الشعراء نحو الاستقاء من المخزون الشعري التقليدي، بسبب حبهم للقديم، وكذا عدم قدرتهم على الانسلاخ عنه لكثرة ما كانوا يحفظونه في مخيلتهم المرسخة بالأولين، بل إن كثيرا من الدارسين كانوا يرون أن هذا العصر لم يكن عصر نهوض للشعر ولا عصر تشجيع للشعراء، والنتيجة ان ابتدعوا عن الاهتمام بالابتكار، ولم يستطيعوا ذلك الا فئة قليلة من الشعراء، وهذا يعني أنه عصر لا فضل له على الشعر في ابتكار المعاني والأخيلة، وهنا يقول يوسف السباعي: **"يكون أغلب ما يقع لهم فيها من معنى جيد أو خيال رائع أخوذا من أولئكم الشعراء المتقدمين، ولا يقفون فيه عند حد، ولا يخجلون ازاءه من ترديد"**[2]

ويمكن أن نلاحظ تجاذب بين تيارات ثلاث، أكثرها بروزا كان التيار التقليدي الذي سيطر لكثرة ما كانوا يستقون من التجارب السابقة، وظهرت الأوصاف التقليدية والأماكن ذاتها والشوق والأوصاف الطبيعية والجسدية والنفسية أيضا ونجد مثال للشهاب الغزاري الذي يقول:

يا برق كيف الثنايا الغر من إضِّم يا برق أم كيف لي منهنَّ تقبيل
ويا نسيم الصبا كرر عـــلى إذني حديثهن فمـــما التكرار مملول [3]

---

[1] - الصفدي، اعيان العصر، ج3، ق1 و89 عن عمرو موسى باشا، المرجع السابق، ص648.

[2] - يوسف السباعي، تاريخ الأدب العربي، بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين، ص136.

[3] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص119.

وهناك الصور المستجدة تلك التي ألبسها الشعراء حلة جديدة ، وتم اعادة صياغتها لتوائم السياق والحدث الشعري، لقد قام العديد من الشعراء بنقل الصور والتشبيهات والأماكن الق
ديمة لكن تم تحويلها لتكون مناسبة للمقام الذي يتحدث عنه الشاعر، وهنا قول للشاعر ابن الحلاوي: **حكاه من الغصن الرطب وريقه وما الخمر إلاَّ وجنتـــاه وريقهُ**
هلال ولكن أفقُ قلبي محـــله غزال ولكن سفح عين تحقيقه[1]

فالمناخ كان مواتيا لابتكار بعض المعاني الجديدة وتوليدها ، وقد ظهر ذلك عند الشهاب المنصوري وفخر الدين بن عبد الوهاب المصري بحديثه عن الأهرامات، ولعل أكثر المعاني المستجدة نسبت إلى ابن نباتة الذي تمكن من ابتكار الكثير منها كاستخدام اسمه في قصائده الشعرية من ذلك قوله:

أحقا أراني في ثرى عتباته نباتا يحي واكف المزن بالزهر[2]

ومن المعاني المخترعة ما كان يدور حول حوادث مستقاة من العصر كالحديث عن الطاعون سنة749ه وفي هذا يقول الصفدي: **لا تثق بالحياة طرفة عين في زمان طاعونه مستطير**
فإن القبـــور شعلة شمع والبرايا لها فـــراش تطير [3]

وقد يكون المعنى مجسد في صور مستحدثة، ابتدعها الشعراء من مخيلتهم الخاصة ومن ثقافتهم الجديدة والمكتسبة، ونجد مثل هذه الصور عند ابن دنيال (ت708ه) الذي عاش في مصر في عهد الظاهر بيرس، واشتهر بحبه للأدب واشتغل كحالا، يتردد على دكانه كثيرا من الشعراء والكتاب، ومما قاله في وصف عمله:

يا سائلي عن حرفتي في الورى وضيعني فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنـــفاقه يأخذه من أعين الناس [4]

عرف عنه الهزل والمقدرة على اتيان المعاني الغريبة والتشخيص، ومعظم أشعاره كانت تقارب أحوال الناس ومشاكلها، ومما قاله في وصف مركب ركبه رفقة جماعة من الناس:

وكم أقمنا بحـــدود الله من ذي الحِيل
من كل لص سارق مثل البلاء المنزل [5]فأظهر دور المشاعلية في حياة المجتمع المصري، واهتم بتصوير طبقات أخرى من أفراد المجتمع المصري كالحرفين

---

[1] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص120

[2] - يوسف السباعي، تاريخ الأدب العربي، بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين، ص136.

[3] - المرجع نفسهن ص138.

[4] - محمد زغلول سلام، المرجع السابق، ص186

[5] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، ص207

والعاطلون عن العمل وبعض شعره لا معنى له قال:**العيد عيد والصيام صيـــــام والشهر شهـــــر كله أيامُ**

والفطر من بعد الغروب محلل لكنه بعد الشروق حرامُ [1]،

وتبقى نفس الخصائص تهين على الشعر في العهد التركي، حيث لوحظ تنوع طبقات الشعراء ما بين كاتب وعالم وإمام وفقيه، وكان الشعراء بعضهم فقهاء مثل ابن الدقيق العيد الذي تحدثت الكتب عن ذكائه ووفرة عقله وكثرة سكينته، وأغلب شعره كان ذا طابع ديني موزع ما بين مدح نبوي وزهد وشكوى من الدهر وأحواله ومما قاله:

أنعيت نفسك بين لذة كادح طلب الحياة وبين حرص مؤجلوكان للشعر في العهد التركي مجموعة من السمات ذكرها حنا الفاخوري في كتابه تاريخ الأدب العربي، وهي **" الاغراق في استخدام التنميق اللفظي، والتفنن في تنويعها وإظهار البراعة بلزوم ما لا يلزم، ونظم التواريخ الشعرية، مما أضر بالمعاني، وقد شاعر في هذا العصر وصف الأشياء المألوفة والكلام الصريح في الهجر، ودخلت الألفاظ العامية والأوزان الشعبية في الشعر**[2] . أول ميزة ذكرها هي الصنعة اللفظة المثقلة التي أصابت الشعر، وهي ميزة كانت شائعة لكنها ازدادا وساعة في هذا العصر، حتى تركته على حد تعبيره **"كالمريض المدنف بعد أن ألح عليه السقم والهزال، فإذا ما أزحت ستار الألفاظ البراقة التي لا تقع غالبا الا على معان مكرورة مسروقة غثة"**[3]، حيث تفننوا في ألوان البديع ليظهر إلى الوجود فن البديعيات ليكون شاهدا على شدة التزويق اللفظي، والذي يحتم على بيت ان يحمل لون بديعي أو أكثر.وولع الشعراء بالتورية إلى حد انهم اعتبروها خاصية تدل على عصرهم من باب التمييز الزمني، وهنا وازدانت القصائد بالأحجيات والالغاز، ولزوم ما لا يلزم، والحساب اللفظي للجمل لتناسب التأريخ الشعري وغيرها. ويلاحظ على العصر استخدام اللفظ الصريح القريب من لغة العامة من الناس، يقول الكاتب: **لقد أسرف الشعراء في استعمال الكلام العادي الصريح في الهجو والتعابير البذيئة والغزل بالمذكر وانتشرت في الشعر الألفاظ العامية والكلام غير المعرب والأوزان الشعبية** [4] واشتد رخس الكلام في الهجاء وفي الشعر الاباحي وشاعت الكلمات البذيئة في الخمرة والمجون وفي الغزل، واقترب الشعر من لغة العامة من الناس إلى حد أنه تم اختراع أوزان شعرية وتم تكييف الشعر بما يتناسب مع العصر من خلال ظهور الفنون الشعرية الشعبية التي تصلح للغناء والتي سبق أن تحدثنا عنها سابقا في المحاضرة الخامسة.

---

[1] - المرجع نفسه، ص218

[2] - حنا الفاخروي، تاريخ الأدب العربي، ص870

[3] - المرجع نفسه، ص871.

[4] - حنا الفاخروي، تاريخ الأدب العربي، ص872.

مقياس: أدب عصر الضعف

المستوى: السنة الأولى ماستر(تخصص الأدب العربي الحديث والمعاصر)

المحاضرة الثامنة

الرسائل الديوانية و الاخوانية في عصر الضعف

الرسائل الديوانية

يشمل النثر الديواني " **بيعات الخلفاء وتقاليد الملوك وولاة العهود ومراسيم اسناد الوزارة والنيابة والقيادة والقضاء والتعليم والخطابة، وغير ذلك من شؤون إدارة الدولة والتوقيعات وبلاغات القصر والمنشورات السياسية والاقتصادية وغيرها ونسخ الأمان والايمان وكتابة التقارير وشؤون السفارات بين بعض ملوك الاسلام وبعض، وبينهم وبين ملوك الفرن،ج وكتابة المعاهدات والرسائل الديوانية"[1]**. وكان لغة التخاطب بين المماليك. وهناك من يميل إلى تسميتها بالكتابة السلطانية، لأنها تخص الحديث عن أمور الدولة وشؤونها الداخلية والخارجية.

كانت الرسائل الديوانية يشمل على كتب التقاليد والتواقيع والمناشير وكتب الفتوح والتهاني والجهاد، وقد عني الكاتب بيومي السباعي بجمع الأنواع وذكرها في كتابه، منها المسامحات المالية والامتيازات التجارية، والكتابة عند ظهور الآيات السماوية وكتب الخلع وغيرها"[2]، ونحن هنا سنركز على أكثرها انتشارا وتداولا، وهي رسائل البيعات، وكانت تكتب عند تقليد الخلفاء والسلاطين وتلك التي تعنى بتقليد الوزراء والولاة في مناصب معينة، وكانت المراسيم تجري بحضور العديد من الشخصيات الهامة. وقد شاعت كثيرا في عهد الدولة الفاطمية وكذا في عهد المماليك، ويتم فيها ذكر أهمية الخلافة لنظام المسلمين وضرورة قيامها لنفعهم وصلاحهم، كما كان العهد لا يمل من تكرار عقائد الفاطميين وباقي المماليك، ويتم فيها التذكير باخلاق محمد (ص) كي تثبت مقاصد الخلفاء

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، مصر، ص 467.

[2] - أنظر بيومي السباعي، تاريخ الأدب العربي بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين، ص 56

ويتم في التقليد اظهار مناقب الملك بالثناء والتمجيد، ودور في الجانب السياسي، ويقال إن مثل هذه التقاليد تخول للملك حرية التصرف كيفما يشاء وله حرية مطلقة في التصرف في شؤون الرعية والجنود، ويوصي التقليد المعني بضرورة إقامة شعائر العدل والالتزام بها، وتقريبا نفس الأمر يتم مع ولاة العهود التي بدورها تبدا بالصلاة على الرسول(ص) والحديث عن مراسم التنصيب وملكتيه وحدودها مع وصايا كثيرة حول العدل والاحسان وغيرها، وأيضا مع سجلات تقليد الوزراء.

وتحتوي التقاليد على عهود، يتم فيها ذكر بعد الحمد والصلاة على رسوله تمجيدا للملك الذي أنشئ العهد لأجله، وتسجيلا لإقامته أركان الخلافة وإعادة بنائها، ومنه التقليد الذي أنشئ للسلطان بيرس والذي فحواه: **"وبعد فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره، وأحقهم أن يصبح القلم ساجدا وراكعا في تسطير مناقبه وبره، من سعى فأضحى بسعيه الجميل متقدما، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجدا ومتهما، وما بدت يد من المكرمات الا كان لها زندا ومعصما ولا استباح بسيفه حمى وفى الا أضرمه نارا واجراه دماً "**[1].

إن التقاليد إذن نوع من أنواع الرسائل الديوانية، تصدر عن السلطان، وهي ترسل إلى نفر من كبار رجال الدولة عند تعيينهم في منصب من المناصب الرفيعة. وتسرد كتب الأدب رسالة بمناسبة تفويض السلطان المظفر سنة 647ه ابنه السلطان الأشرف عمر وفيها يقول: **" أما بعد فقد ملكنا علهم من لا نؤثر فيه والله إلى التقريب على باعث التجريب ولا عاجل التخصيص ولا ملازمة الهوى والإيثار على مداومة البلوى والاختبار "**[2].

تكون مثل هذه الرسائل عبارة عن تقاليد رسمية خلال مراسم تعيين بوظائف معينة، بحيث يتم تقليد الكاتب الرئاسة بوزارة معينة يتم فيها التنويه بمكانة المقلد مثلا والرتبة وتفخيم أمرها مع ذكر أوصاف المقلد، وما يستوجبه من عدل مع وصايا وإشارات، وممن قال شهاب الدين في تقليد سلامس بمملكة الروم: **"وليعلم ان جيوشنا في المسير اليه متى قصد عدوا سابقت خيولنا، وجارت جيادنا ظلالها، وأبت سنابكلها أن تجعل غير جماجم الأعداء نعالها "**[3] .

وهناك والمراسيم والمناشير والتواقيع، وهي نوع من مظاهر الصلة بين الحاكم والمحكوم، كما أنها كانت متبادلة بين الملوك في أمور السلم والحرب، وتعرج على مختلف القضايا الدولية والعلاقات الخارجية مع الملوك الأجانب، بالنسبة للتوقيعات، فهي قلما تم الاشارة اليها في الكتب، وهي كتابة على كشوف يتم فيها الإخبار عن رواتب

---

[1] - العهد في صبح الأعشى ، ج9، ص111 نقلا عن أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية في مصر والشام، ص 305.

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة ص209.

[3] - شهاب الدين حسن التوسل ص114 نقلا عن عمر موسا باشا ، الأدب في بلاد الشام ، ص753.

المستخدمين وميراث العمال وتركتهم، وكذا مرافعات ترفع إلى السلطان حول أمور تخص الحج والجيش، أو معلومات على السلطان أن يوقعها ليتم ارسالها إلى المعني بالأمر وكأنها تسريح بالشيء، ويورد أحمد بدوي بعض التوقيعات نذكر منها توقيعا لصلاح الدين على رسالة كتبها القاضي الفاضل يستإذنه للحج فرد عليه بالتوقيع والقبول ومما كتبه: **"على خيرة الله تعالى يا ليتني كنت معكم فأفوز فوزا عظيما "**[1].

وكان يعتمد فيها على براعة الاستهلال ومراعاة مقتضى الحال والمقام واختيار الكلام ومواقع الفضل،وقد تفتن كتاب الديوان في كتابة هذه التوقيعات افتتانهم في غيرها من الرسائل الديوانية. ومن الكتاب في هذا النوع **الصلاح الصفدي** بعد تولى الكاتب عمر بن داود ديوان الانشاء وكتبت توقيعا بذلك يقول فيه: **"رسم بالأمر العالي، لا زال يزيد الأولياء زينا، ويزين الاكفاء لمن اذا حلّ صدرا كان غنيا ، ويرتجع لكل مستحق ما كان ذمة الزمان دينا ،أن يستقر المجلس العالي الزيني في كذا**[2].

ومن الأنواع التي ذكرها أيضا بيومي السباعي كتب البشارة، ويقصد بها الأخبار المفرحة مثلا بقوم الأعياد الدينية أو مواليد جدد أو أفراح تتعلق بالزواج ومختلف المناسبات الاجتماعية السعيدة، وحتى الدينية والمولد النبوي ورمضان، وموسم الحج، إن البشارات، هي **"رسائل توجه إلى ولاة الاقطار لتقرأ على الناس، أو يبلغ فحواها إلى الناس وهي تدور حول ذهاب السلطان إلى الحرب ورجوعه منها وعلى تنقله في البلاد وعلى انعامه وعلى الافراد والجماعات بمناصب أو أموال أو على إعلان العقوبة على عاصيين أو تهديدهم بعقاب مقبل" [3]** .

وهناك الرسائل التي تعنى بحث الممسلمين على الجهاد والتهنئة بالنصر، ووصف المعارك، والحديث عن الهزائم، وهي غالبا ما تصدر عن شخصيات رفيعة المقام أو بعبارة أدق من طرف ولاة الأمور، حيث تنسب أغلبها شخصيات مشهورة كصلاح الدين الأيوبي أو ادباء مثل البديع كالأصبهاني الذي يشهد له المؤرخين برسائل كثيرة غاية في الجودة والاستعانة بالبيان، ومما قاله رسالة في فتح عكا: **" الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد .....وتلك سبع ليال وثمانية أيام شخرها الله على الكفار فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** ... [4].

ومن الرسائل ما كان يرسل إلى ملوك الصلبيين وسلاطين التتار، تدعوهم إلى إقامة علاقة صداقة أو تبعث لهم تحية، وقد تكون انذار ووعيد بالنصر والكفاح في المعركة. وظهرت رسائل الفتوح التي تشيد بانتصارات المسلمين مثل رسائل **تاج الله ابن الأثير**

---

[1] - الروضتين، ج1 ص13 نقلا عن أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية في مصر والشام، ص309.

[2] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج2 ، دط، ص 29

[3] - عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس هجري الى الفتح العثماني، ص615.

[4] - انظر الروضتين 89/2 نقلا عن محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص251

الذي بعث إلى ملك اليمن بعد فتح طرابلس الشام قال فيها: **"أعز الله نصر المقام العالي السلطاني الملكي المظفري الشمسي... هذه الخدمة نقصُ من أبناء البشرى كل ما يسري ويسر ويمري أخلاف النصر ويمر، ويظهر منه غاية الله بهذه الأمة التي خصها بالمقة وعدّوها بالمقت وأن حقوقها لا تضاغ، وان اغتصبت في وقت ، وهو الهناء لما تسنى من فتح طرابلس الشام وانتقالها من الكفر إلى الاسلام"**[1].

كانت طبيعة العصر المتوترة بين المسلمين والصليبين دافعا لكثرة رسائل التهاني والفتوح والاحتفالات وانتصارات الجيوش، وابن الأثير لديه رسالة إلى الملك الأفضل يهنئه بالنصر بملك مصر الملك، يقول: **"ينهئ مولانا بنعمة الله المؤدنة باستخلاصه واحتبائه حتى بلغ أشده واستخرج كنور ابائه ولو أنصف لهنا الأرض منه بوابلها والأمة بكافلها وخصوصا أرض مصر التي خصت بشرف سكانه"** [2] .

كثرت الرسائل الديوانية بين مصر والحجاز في العهد الأيوبي والمملوكي، وقد كان أغلبها مندرج تحت كتب الدعوة الى الدين والحث على ضرورة طاعة أولياء الأمور، وعدم عصيانهم، والتنويه بما ينجر عن ذلك من سوء له وللعامة من الناس، ولنا مثال يعود إلى الظاهر بيرس برسالة موجهة إلى **أبي نمى** أمير مكة 676 يلومه على الظلم الممارس قائلا: **"من بيرس سلطان مصر إلى الشريف الحسب النسب، أبي نمى بن محمد بن أبي سعد، أما بعد الحسنة في نفسها حسنة، وهي من بيت النبوة أحسن والسيئة في نفسها سيئة، وهي من بيت النبوة أوحش، بلغني عنك أيها الأمير أنك أويت المجرم، واستحللت دم المحرم ، ومن يهن الله عليه فما له من مكرم"** [3]. ومثل هذه الرسائل كانت ترسل أيضا لنبذ الخلاف والحث على الجهاد.

وعموما فإن هذه الرسائل كانت **"تنهتج نهجا معينا تكثر فيه من ذكر الشعراء أو الاقتباس منه، وكثيرا ما تفتتح به أو بآيات من القرآن ولكن الاستشهاد بالقرآن وبالحديث كان أوضح في الرسائل الديوانية منه في الرسائل الاخوانية أو الفنون الأخرى، وهذا طبيعي لأن رسائل الدولة موجهة إلى الناس تخاطب فيهم الناحية الدينية في أمور عيشهم وتدبيرهم في حقوق الدولة عليهم"**[4] . حيث لوحظ في هذا الفن النثري في هذا العصر كثرة ألفاظ المديح والإطراء،كما عرف بالافتتاحيات التي تزخر بمعاني

---

[1] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج2 دط، ص 24.

[2] - عمر موسا باشا، الأدب في بلاد الشام، ص737.

[3] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، ، الجزيرة، العراق، ايران ص206.

[4] - انظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص211

الخضوع والذلة[1]، هذا إلى جانب الميل نحو استعمال الأصوات والإيقاع والابتعاد عن روح البداوة وفنونها. وصارت الكتابة فيها أشق من كتابة الشعر المتكلف.

من الأدباء يطالعنا **عبد الرحيم بن علي بن ضيت** (ت 625ه) وهو من مصر ألف في الكتابة الديوانية كتاب بعنوان **"معالم الكتابة ومغانم الاصابة"**، ومما قاله في هذا النوع الأدبي: **"من أحسن أحوال الكاتب ان يكون حضوره عند صاحبه باستدعاء وان يكون قيامه عند الفراغ من المهام والانتهاء . وليحذر الدخول على صاحبه في الخلوات بغير استئذان، وإن كانت تلك عادته معه في المحفل، فربما أخط هذا وأغضب"** [2]، و له أشعار ورسائل وتصانيف أخرى.

والجدير بالذكر أن نجد كانت أقل بيئات الجزيرة عناية بالكتابة لصعوبة حصولها على الأوراق والحبر وغيرها من وسائلها المادية، ولكن هذا لا ينفي ظهور مؤلفات نثرية في باقي أنحاء شبه الجزيرة العربية ، حيث كثر تبادل الرسائل بين العلماء والأدباء في مكة والمدينة والطائف على نحو ما يلقانا في كتاب **"بلاغة العصر "** لابن معصوم. لقد ظلت الكتابة مزدهرة في بعض الأقاليم في اليمن، سواء في عهد الدولة الأيوبية، ثم في عهد الدولة الرسولية التي اعتنت بالكتابة الديوانية بين سلاطين المماليك، وكانت تحوي على المواعظ والنسخ على نحو ما نجد عند **الصالح أحمد بن علوان** سنة (665ه) . وتشير كتب التاريخ حول الحجاز إلى رسائل متبادلة بين أمراء الدول والامارات، وتتحول الرسائل إلى مجال لإظهار مواقفهم ازاء ما يحدث في المجتمع من أحداث ومناسبات. كما ظلت عمان تحتفظ بنشاط كتاب طوال العصر وتحضرنا هنا رسائل بني نبهان السنين في ق6 إلى ق9 وهي رسائل منمقة يغلب عليها السجع والترصيع، كما يشيع هذا التصريع والسجع في رسائل موجه من بعض شيوخ الخوارج إلى أئمتهم في شكل نصائح ووصايا أو موجهة اليهم من بعض أشياعهم أو من أهل نزوى ابتغاء احقاق العدل ونشر الرأفة والعفو عند المقدرة [3].

وبسب كثرة الدول المتعاقبة على **ايران** والدولة الفارسية كثرت الرسائل الديوانية التي كانت تتصدر الكتب مزدانة بالزخرفة اللفظية وحسن البيان. فقد كان لكل دولة وإمارة ديوان رسائل تصدره كتاب اشتهروا ومضوا يتألقون في كتاباتهم صورا من التأنق حتى يرضوا أمراءهم وكانت لا تخلو من السجع[4]. وخاصة في عهد الدولة الخوارزمية.

---

[1] - المرجع نفسه، ص 200.

[2] - انظر محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص276

[3] - أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة ص206.

[4] - انظر المرجع نفسه، ص. 647

معروف عن **مصر** أن أول من أسس دار الانشاء هو أحمد بن طولون وقد وضع على رأسهم خيرة الكتاب، لقد كانت الرسائل الديوانية مليئة بالسجع والتصاوير، واهتم الفاطميون بالإنشاء حتى أنهم ألحقوا ابالديوان خيرة النحاة والبلغاء لمراجعة الرسائل قبل صدورها مثل ابن بركات القاضي وإبراهيم بن لقمان، وأسرة آل العمري من ق7إلى 8ه.
وقد بلغت كتابة الرسائل شأنا عظيما لدى سلاطين المماليك، حيث كان الكتاب آنذلك يترأسون ديوان الانشاء وهذا المنصب يجعل صاحبه بمثابة الوزير، ثم تم أضافة منزلة كاتب السر وهو أعلى مرتبة من الذي يترأس ديوان الانشاء[1]، وتمسك السلاطين بالكتاب ليكونوا لهم عونا على المجتمع وأيضا وساطة بينهم وبين الشعب.

وقد عمل به كبار الكتاب مثل علاء الدين ابن الأثير و**محي الدين بن عبد الظاهر** الذي كتب على لسان السلطان قلاوون رسالة إلى السلطان أحمد غازان سلطان التتار بعد اعتناقه الاسلام يقول فيها:" **أما بعد الحمد لله الذي أوضح بنا ولنا للحق منهاجا وجاء بنا، فجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله افواجا ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد الذي فضله الله على كل نبي، نجى به أمته، وهو على كل شيئ ناجي، صلاة تنير ما دجا وتنير من داجى "[2].**

إن **محي الدين بن عبد الظاهر** (ولد620ه)كان أهم كتاب المماليك ويترأس كاتب السر ، لمع اسمه في عهد بيرس، وكانت تصدر عنه العهود والتقاليد والسجلات والتوقعيات نحو 40عاما ، وقد تم الاشادة ببلاغته، وقيل عنه إنه أجل كتاب عصره وفضلاء مصر، وله رسالة كتبها إلى الوزير بهاء الدين بن حنا يصف فيها حروب التتار يقول فيها: **"سرنا لا يستقر بناني شيء من المهالك قرار ولا يقتدح من غير سنابك الخيل نار ولا نمر على مدينته إلا بمرور الرياح على الخمائل في الاصائل والابكار ولا نقيم إلا بمقدار ما يتزيد الزائرين من الأهبة"** [3].

من المؤلفين المشهورين آنذلك القاضي الفاضل كاتب الظاهر بيرس (ولد529ه) الذي كان يكتب السجلات والتقاليد وكان اللسان المين لصلاح الدين طول حكمه، كما كان رب السيف والقلم والبيان كما يذكر. ومما قاله: **"وأبسط يدك فقد فوض اليك أمير المؤمنين بسطا وقبضا، وأرفع ناظرك، فقد أباح لك رفعا وخفضا وأثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودحضا"** [4] . ونلاحظ أنه لا ثقل فيها ولا تكلف مع سهولة ورونق .

ومن الذين اشتغلوا بالديوان من أسرة آل العمري ابن فضل الله العمري (ولد700ه) وكان اماما فاضلا له مكاتبات ديوانية في كتابه التعريف بالمصطلح الشريف في سبعة

---

[1] - أنظر تاريخ الأدب العربي بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين، ص55-56

[2] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج2 دط، ص 19/18

[3] - شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات " مصر، ص 417.

[4] - المرجع نفسه، ص 313.

أقسام، ومما قاله في تقليد وزير في وزارته: **"عليه بالكفاة الأمناء وتجنب الخونة، وإن كانوا ذوي عناء، وإياه والعاجز ومن لو رأى المصلحة بين عينيه، ألقى بينه وبينها ألف حاجز، وليطهر بابه ويسهل حجابه ويفكر فيما بعد أكثر مما قرب مقدما للأهم، ولينظر إلى ما غاب عنه وحضر نظر المماسي والمصابح"**[1].

وأحيانا تكون الرسائل عبارة عن وصف لسلوكات المجتمع السائدة سواء الجيدة منها أو السيئة، وهنا تحضرنا رسالة لـــ **محي الدين بن عبد الظاهر** في دعوة منه إلى السلطان لابطال الحشيش المنشرة بين الشباب، يقول: **تعلم أن المنكرات التي أمرنا ان تملأ الصحائف بأجرها وتفرغ الصحاف، ألا يخلو بيت من بيوتها من كسر أو زحاف، قد بلغنا الآن أنها احتضرت وأن كلمة السلطان بالتعويض عنها قد نصرت، وأن أم الخبائث ما عصمت ...ونحن نأمر أن تجتث أصولها وتقتلع ويؤدب غارمها حتى يحصد الندامة كل زارع"** [2].

ونجد بعض الرسائل رقيقة الأسلوب يلجأ فيها الكاتب نحو الافاضة في الدعاء وعبارات الابتهال مثل قول **الملك قطر** في رسالة إلى ملك اليمن المنصور يهنئه بالنصر : **"أعز الله تعإلى أنصار المقر الشريف العالي الموردي السلطاني الملكي المنصوري وأعلى منارة وضاعف اقتداره إنه كان النصف من شهر رجب، فتح الله تعإلى بنصر المسلمين على أعداء الدين"** [3].

وبالنسبة لفن الرسالة في الأندلس في البداية كانت على عهد القواعد المشرقية خصوصا في العهد الأموي إلى أن جاء عصر ملوك الطوائف الذين قاموا بإنشاء المدارس والمكاتب وتنافس فيها من تنافس، وتم اسناد المناصب إلى ذوي الكفاءة وبقي هذا الفن له حضوة لدى الكتاب مع ميل نحو السجع والوصف الذي استحضر كل مظاهر الأندلس المختلفة.

عرف عن كتابة الرسائل في الأندلس بإتباع قواعد منها ذكر الألقاب وأسماء السلاطين والدعاء لهم والحمد والثناء على النبي الكريم، وإظهار مكانة الرسالة وبيان المقصود منها وما كتب رسالة إلى سلطان تونس جوابا على كتاب وصل منه وهدية يقول فيها:" **الخلافة التي ارتفع في عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف واستقلت مباني فخرها الشائع وعزها الذائع على ما أسسه الأسلاف وجب لحقها الجازمير وفرصتها اللازم الاعتراف ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيبة والألفاظ الاكناف"**[4]. وقد عرفت بانتقاء الالفاظ ورونقها مع ميل نحو استخدام أسجاع طويلة.

---

[1] - المرجع نفسه، ص 422.

[2] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج2 دط، ص 35/34

[3] - بيومي السباعي، تاريخ الأدب العربي بمصر والشام على عهد المماليك والعثمانين، دط، مطبعة العلوم بشارع الخليج، الامارات، 1947، ص 75.

[4] - شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات "الأندلس"، ص 420.

من أشهر الكتاب الذين ظهروا في الأندلس ابن الجبان ولسان الدين الخطيب الذي كان أكبر كتاب غرناطة في أزمنة الأندلس الأخيرة(ولد713ه). وإذا مررنا إلى دول المغرب العربي، لنعرف أحوال الكتابة فيها، فإننا نتوقف أولا عند تونس التي بها مركز لديوان الجند والخراج، لهذا وكثرت بها الرسائل خاصة في عهد الدولة الحفصية التي حدثت فيها نهضة بديوان الانشاء واستقدمت كبار الكتاب من الأندلس المهاجرين مثل ابن الآبار، فاشتهر فيها ابن العباس أحمد ابن ابراهيم العناني(658ه) وابن الحباب.

وقد ظهرت عند ابن خلدون ما يسمى بالتقاليد، وما يميز رسائله هو ايراد لفظ الخليفة وأنسابه والدعاء له والسلام والتحية ليصل بعدها إلى المقصد. وله رسالة من الخليفة الحفصي المتوكل على الله أحمد بن أبي عبد الله الحفصي إلى السلطان برقوق يهنئه باسترداد عرشه يقول فيها: **"من عبد الله المتوكل على الله أمير المؤمنين أحمد ابن مولانا الأمير أبي عبد الله، ابن مولانا الأمير أبي يحي ابن الأمراء الراشدين أعلى الله به كلمة الاسلام، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام"**[1]، وفيها أسجاع طويلة الدعاء والصلاة وذكر فضائل السلطان .

ضعفت كتابة الرسائل في العهد العثماني لأن الدولة الحاكمة كانت تركية، لذا غلبت الألفاظ الأعجمية في النصوص، وبقيت نقية تلك التي يتم مراسلة الدول العربية بها، ومن الرسائل ما كتبه محمد القالي إلى محمد بكداش، موضوعها: **"حل الله تعالى، ملك الملك ومقيم قسطاس العدل بما أراده من اعزاز السادات الترك جمع سبحانه وتعالى بجمع عليمه الدين الحنيف وأثرهم بهذا الملك الكبير وهذا العز المنيف"**[2]. لقد استخدمت اللغة التركية كغة التراسل والإنشاء، مما أضعف النثر الديواني المكتوب بالعربية، وتم الابقاء فقط على تلك الموجهة إلى ملوك الدول وأمراؤها في الوطن العربي، وهي رسائل يغلب عليها الوضوح والدقة والابتعاد عن الألاعيب اللفظية والمحسنات البديعية .

ب- الرسائل الإخوانية

تقترب الرسائل الإخوانية من قلب المرء لتملامس عواطفه وتستثير مشاعره، فتنقل كل هواجسه وانفعالاته المختلفة الى شخص آخر يكون قريبا منه، يحاول خلالها مد أواصر المحبة وتوثيقها أو استعطافه وحتى عتابه، إن هذا النوع الأدبي، **"تتضمن ما يكتبه الأدباء بعضهم الى بعض من رسائل في المدح والرثاء والفخر والهجاء والاستعطاف والعتباب والمحبة والرجاء والشفاعة والاستهداء وسوى ذلك من شتى الموضوعات والأغراض**[3].

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات "ليبيا، ... ص 308/307

[2] - شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات "الجزائر ...."، ص 232.

[3] - عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في مصر "العصر المملوكي والعثماني، ص93

تموج كتب الأدب برسائل الأدباء والكتاب في المناسبات المختلفة في محاولاتهم لإظهار مقدرتهم البلاغية والمعرفية وزخارفهم البيانية، وكانت شائعة بين المماليك. ولأدباء **مكة والمدينة** بين القوم مفتي مكة الشيخ **وجيه الدين عبد الرحمن** إلى **أبي المواهب البكري** مفتي الديار المصرية سنة (1022ه)حيث يقول: **" إن أشرف ما تتوج به المفارق والرؤوس، وأبهر ما تبتهج به المهارق والطروس، وأبهى ما ينظم في سلك السطور من الدرر البارهة لدرر النحور، وأنهى ما يرقم في صكوك الصور من الغرز المضاهية للآلئ البحور** [1]. ونلاحظ القدرة على جلب العبارات المحشوة بضروب من الاستعارات والمجازات .

في **حضر موت** كان هناك كاتبا يحاكي الحرير في رسائله، وهو عمر السقاف الحضرمى ومما كتبه رسالة يعاتب فيه صديقا وهو يقول: **"باسم السلام استبدى، وبإسعافه استهدى وبأس،اميه استنجد ولنفثات سره أستنسد، وبإسدال سره أستظل.."**[2]. لقد كانت الرسائل الاخوانية كثيرة، فحين ضاقت دائرة التفاعل بين الأدباء وافتقروا إلى الحوادث الكبرى التي تتمحور حولها رسائلهم، انشغلوا برسائل شخصية بينهم لإظهار قدراتهم الأدبية والحرص على بيان معرفتهم بأمزجة النفوس والإطلاع على أساليب البلاغة وتكثيف الكلام

إن من أنواع الرسائل الاخوانية: **التعازي والتهاني والإهداء والاستهداء والزيارة، والاستزارة والاخبار والاستخبار، والتشوق والتودد والشفاعة والاستعطاف والاعتذار والشكوى، والاستماحة والشكر والعتاب والعيادة والمذ والذم...الخ.."**[3]. وكانت مليئة بالتعابير الوجدانية والمكونات الذاتية. وكان الأدباء يصورون فيها عواطفهم ومواقفهم المختلفة في المجتمع، وليس ذلك فحسب بل يورد السباعي انواع اخرى في كتابه، وهي رسائل الصدقات للملوك والرؤساء تدون ما يجري في مراسيم الزواج، ورسائل العمرات أو الحج ورسائل التقريضات ورسائل الاجازة بالفتيا او الرواية**.."**[4].

ازدهرت الرسائل الشخصية في عصر الدول والإمارات **بالعراق**، ويلقانا عطا ملك الجويني سنة(681 ه)، وكان رئيس الديوان ببغداد وكذا بهاء الدين الاربلي (692 ه) وشرف الدين علي بن أميران (693 ه). ولنا رسالة من بوكدار بن هولاكو كتبها **بن عيسى** عن السلطان أحمد إلى الملك المنصور قلاوون صاحب مصر (سنة681ه)يقول فيها: **إلى سلطان مصر، أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى سابق عنايته ونور هدايته، وقد**

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة ... ص214.

[2] - بيومي السباعي، تاريخ الأدب العربي بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين، ص63.

[3] - شوقي ضيف، المرجع السابق، ص215.

[4] - أنظر بيومي السباعي، المرجع السابق، ص64-65

كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الاقرار بربوبيته، والاعتراف بوحدانيته، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريته[1].

وفي القرن التاسع يلقانا لغياث البغدادي وضياء الدين ابن الأثير الذي حظي بشهرة واسعة لأسلوبه في كتابه **"المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"**، فطريقته وخصائصه في رسائله الديوانية يعنى فيها قبل كل شيء بالسجع وتوشيته بالصور البيانية والمحسنات البديعية مع نثر ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوي فيها وحل أبيات الشعر يقول: **أخذنا بسنة رسول الله في النصر الذي نرجوه، ونبذنا في وجه العدو كفا من التراب وقلنا شاهت الوجوه [2].**

ومن الكتاب الذين برزوا في هذا العصر تاج الدين بن الأثير وشهاب الدين الحلبي والقلقشندي صاحب رسالة **"حلية الفضل وزينة الكرم في المضادة بين السيف والقلم".** هذه الرسائل الاخوانية كان يتم فيها التحية في المناسبات وإلقائها على الأحبة والمداعبة بين الأهل والحديث عن أحوال البلاد والعباد .

ومن الكتاب البارزين **في مصر محي الدين بن عبد الظاهر** الذي كتب رسالة إلى الشاعر ابن النقيب بعدما سمع أن شخصا عابه في مجلسه، وفيها يقول: **"إن فلانا عضى مني، وزعم أن إناء أبائي غير مفهم، وبناء مجدي غير محكم، وأن جوارح إجادتي جريحة وقرائح ارتجالي قريحة ...وأن صدور المجالس تنكر اقدام أقدامي وبطون الطروس لا تلقح بأقلامي...** [3]. ولــأبي عبد الظاهر رسالة أخرى تتضمن دعوة صديق له إلى حمام ، وفيها يقول: **هل لك اطال الله بقاؤك اطالة تكر عبها من منهل النعيم وتتملى منها بالسعادة تملي الزهر بالوسي والنظر بالحسن الوسيم في المشاركة ف حمام جمع بين جنة ونار وأنواء وأنوار وزهر وأزهار [4]** ، والملاحظ ان أغلب هذه الرسائل كانت تنتهج السجع في أسلوبها، والتفاوت في الطول والقصر حسب رغبة الكاتب، والجزالة إلى جانب الالمام بباقي ضروب الصنعة المختلفة من طباق ومقابلة وتورية.

وكثيرا ما يتراسل الأدباء فيما بينهم لدواعي عدة بغرض تبادل الرأي أو عتاب ما، وقد تكون الغاية هي عرض لقدراتهم البيانية في العلم والأدب بشكل عام ونموذجنا هنا هو للكاتب **"زين الدين عمر بن داود الصفدي"** برسالة كتبها إلى القاضي علاء الدين ابن فضل الله، منها : **"وهل يستقي الظمآن إلا الغمام، أو يستصدخ العاني إلا بالسّراة الكرام**

---

[1] - بيومي السباعي، تاريخ الأدب العربي بمصر والشام على عهدي المماليك والعثمانيين، ص442.

[2] - المرجع نفسه، ص450.

[3] - شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات " مصر، ص 427.

[4] - عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الى الفتح العثماني، ص665.

أو نقف الآمال إلا على الوجوه الصباح، أو يجلو ظلمة الليل البهيم، إلا القمر إذا لاح أو الصباح إذ طلع بنوره الوضاح أو يلوذ العبد إلا بسيده" [1].

كتبت الرسائل أيضا في موضوعات أخرى من رثاء وتعزية ومدح مثل قول **ابن الوردي** في مدح المدن وذمها، يقف فيها الكاتب على وصف الطبيعة فيها ووصف باقي الأشياء والمناظر أو حتى استحضار بعض الشخصيات والحديث عن تجارب يخوضها الكاتب ، وفي الحنين نذكر رسائل **زكي الدين الحسيني** إلى أخيه بدمشق متشوقا لرؤيتها : **"فكيف يبقى لمن حل في جنّة النعيم ورياضها ، ويرتع في ميادين المسرّات وغياضها تلفت إلى من سلّمته يد الأقدار إلى أرض ليست بذات قرار، وبدلوا بجنتهم ذات البان المتفاوح والورق المتصادح والنشر المتقادح "** ..[2]

في العهد العثماني بعدما قل النثر المسجوع وتضاءل، اتجه الأدباء نحو الاهتمام بالأدب الذاتي ودوائر المعارف الكبرى، ومن الأدباء من كتب رسالة في النوع الاخواني هو بدر الدين الغازي (ت984ه) بعنوان" **آداب المآكلة"** وكان لها أهمية كبيرة جدا في اظهار ملامح العصر الاجتماعية وعادات المجتمع وتقاليدهم، وكذا بعض الألبسة والطباع والأشربة وتقاليد أخرى حضارية يقول فيها: **الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، هذه جملة من العيوب التي من علمها كان خبيرا(بآداب الماكلة) وعدتاه أحد وثمانون عيبا حسبما نقلناه مفرقا والله الموفق** [3] .

وقد اشاد عمرو موسى بالرسالة كثيرا في كتابه ومما قاله: **أهمية الرسالة المذكورة ترجع الى كونها مظهرا من مظاهر التقاليد الحضارية، والآداب الاجتماعية الراقية، التي يطمح اليها كل مجتمع يسير في طريق التطور والترقي، زد على ذلك أن مؤلفها لم يترك أي صفة يعرفها ذات صلة بهذا الموضوع الا وعرضها**[4]، كما أشاد بطريقة الكتابة التي ضيغت بها نظرا لاختراعه بعض الكلمات والألفاظ، وكذا الصيغ الاشتقاقية المتبعة، والشواهد الشعرية المقتبسة وغيرها من الظواهر الأسلوبية.

ويورد هناك **المحبي (ت1111ه)** وله رسالة اخوانية نقلها على لسان والده لما بلغه خبر موت ولده الأصغر يقول: **"وما نقص من عمره، وانكسف من بدره زيارة في عمر أخيه رأس المال، ونتيجة جميع الآمال، ففي بقائه عوض عن كل ذاهب، وخلف عن كل غارب، وإذا دعوت الله ان يمتعني سمعي وبصري عنيته ، وإذا قلت أجعلهما الوارث مني، فهو الذي أردته لذلك وارتضيته "**[5]. ويَشهد له النقاد بالفصاحة والبيان،

---

[1] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج2 دط، ص41 .

[2] - المرجع نفسه، ص 79.

[3] - آداب المؤاكلة، ص8 نقلا عن عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي، العصر العثماني، ص 620.

[4] - عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي، العصر العثماني، ص 623.

[5] - المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر 3/279/ 280 عن عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي العصر العثماني، ص629.

وكذا العاطفة الصادقة وحسن التعبير، بل انه حسب الكاتب كثيرا ما كان ينوع في كتاباته بين السجع الذي يؤثره احيانا ويتجنبه أحيانا أخرى.

ظلت الرسائل الشخصية قائمة طوال الحقب العثمانية ودخل عليها بعض التغيير مثل التقليل من الزخرف والتصنع، ونموذجنا هنا رسالة لمحمد بن أبي الحسن البكري أرسلها إلى النور العسلي ليتسلى بمجلسه: وفيها يصرح: **"سيدنا البر الذي يجري بحر الفضائل من بره ويعذب الورد والصدر ما يصدر من صدره ويفيض احسانه نهرا لراجيه وآمله وتبتدر الأنام لتقلى تيار أنامله وتتزاحم على سيف زخار علومه تزاحم رقاب اعدائه على سيفه وخصوصه"**[1].

والملاحظ أن الرسائل في العهد العثماني كانت تفض بالمصطلحات العلمية والأدبية من العروض والنحو والفلك ولابن أبي الشخباء رسائل مدوية منها رسالة استعطاف نقتطف منها هذا النص: **"المودات اذا كانت متينة المرمضة ولم تزلزلها الأباطيل المعترضة، وإن تناقلتها ألسن مختلفة وعلتها برود من اللفظ مفوقة ...وأن أحاكم مولاي إلى انصافه لا اسعافه وعدله لا فضله وما كان اجدره برفض قول الماحل وتغليب الحق على الباطل"** [2].

وبعض الرسائل كانت ملأى بالاقتباسات القرآنية والدينية مثل تلك التي كتبها فخر الدين بن مكانس (ت745ه) وهي تدل على روعة بيانه كتبها إلى بدر الدين البشنكي في غيبته عن مصر عندما فاض النيل، يقول فيها: **"ربنا أجعلنا في هذا الطوفان من الأمنين وسلام على نوح في العالمين، ما تأخير مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذ الماء، فإنه قارب النيل أن يمتزج بنهر المجرة بل وصل وامتزج، وأرانا من عجائه ما حقق أنه المعنى بقول القائل، حدث عن البحر ولا حرج"**[3] . وفيها التزام الأدباء بالسجع والتورية والاستخدام ومراعاة النظير وتضمين النصوص القديمة من أمثال وحكم وشعر وآيات قرآنية، وفيها الكثير من عبارات التعظيم والتفخيم مثل قول أحدهم: **"أن يسامح الباب العالي الصدري الكبيري المؤتمني الأوحدي الأكملي الرئيسي العارفي المقري الخواجكي "**[4] .

ومن الرسائل ما يدور حول اللهو والأنس مثل رسالة بدر الدين بن الصاحب (ت788ه) إإى فخر الدين بن مكانس (السابق ذكره) يدعوه إلى مجلس أنسه ، محتواها**: "هل لك بسط الله آمالك وضاعف نعيمك ودلالك في عذراء مصونة كالدرة المكنونة، فتانة مفتولة كان على خدها فوق وردة ياسمينة ،لها من ذاتها طرب يغني عن المزامير**

---

[1] - شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات " مصر، ص 429.

[2] - شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات " مصر، ص 431

[3] - المرجع نفسه، ص 439.

[4] - بيومي السباعي، تاريخ الأدب العربي بمصر والشام على عهد المماليك والعثمانين، دط، مطبعة العلوم بشارع الخليج، الامارات، 1947، ص 71

"[1]. وهناك رسائل في وصف الكوارث الطبيعية لنفس الكاتب، كوصف الزلازل مثل قول ه في الزلزال الذي ضرب سنة (744 ه): **"نعوذ بالله من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها، ونستعينه في طيب الاقامة بها و(حسن)الرحلة عنها، نعم تستعيذ بالله ونستعين، من سم هذه السنة فهي أم أربع وأربعين، .. زلزال ثبت في بلاد الشمال رجله وخيله، وجزم يرفع الأرض لما جر ذيله، ...زلزال زاغ به العقل، وزال قنت الناس لأجله في الصلوات، وسكنوا من خوفه الصحارى والفروات"**[2].

بالنسبة الرسائل الشخصية، فقد كانت تعبر عن عواطف ومشاعر اعتذار وشكوى وتعزية ومدح وفيها الكثير من المصطلحات العلمية والمسائل المعرفية مثل أبي المطرف الذي قال في رسالة لصديقه اثر استيلاء الروم على بلنسية : **بالله أي منحى ننحو أو مسطور نثبت أو نحو وقد حذف الأصل والزائد وذهبت الصلة والعائد وذهبت علامة الرفع وفقدت نون الجمع، والمعتل أعدى الصحيح والمثلث أردى الفصيح**[3]. من الكتاب من كان يمدح النبي الكريم مثل ابن الجنان الذي قال**: "السلام العم الكريم ، الرحمة التي تبرح ولا تريم، والبركة التي أولها الصلاة وأخرها التسليم على حضرة الرسالة العامة، والدعوة والنبوة المؤيدة بالعصمة واليد والقوة ومثابة البر والتقوى، فهي لقلوب الطيبين صفا ومروة، مقر الأنوار المحدية**[4]. ومثل هذه الرسائل القصيرة بين الأدباء لا تكلف فيها ولا تصنع .

وكان قيام الدول الزيانية والحمادية بالجزائر سببا في دفع بالرسائل إلى الظهور والكثرة مثل محمد الوغليسي في ق7ه وأبو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقي 636ه وفيها شيوع السجع وأبي قسم القالمي والوهراني وابن محشرة. لكن يبدو ان الاهتمام بها كان يتم في مناسبات معينة مثل الحج يقول فقيه قسنطينة في رسالة تم حفظها**: " أبي أحمد الله اليك واصلي على نبيه سيدنا محمد، ولا أريد إلا صالح الدعاء وطلبه منكم فاني أحوج الناس اليه وأشدهم في ظني الحاحا عليه لما تحققت من احوال نفسي الامارة بالسوء وانبسطت من دخيلاتها المثابرة على حب الدنيا الغرارة** [5].

ونختم حديثنا عن الرسائل بالقول إنها كانت تعايش العصر بأساليبه وتقنياته، فالمعروف أنه تم الاستدلال على ضعف الكتابة بشكل عام في هذا العصر، وانصراف الأدباء الى العناية بالصنعة ومختلف أنواع البديع وتزيين الألفاظ كنوع من التزييف أو إخفاء للركاكة التي أصبغت بها الكلمات، فضروب التحلية التي صبغت لغة العصر أدت في النهاية إلى الخروج عن الرونق الشعري إلى الحلى المثقلة والتي أسقطت المعنى،

---

[1] - شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات " مصر، ص 428.

[2] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج2 دط، ص96

[3] - شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات "الأندلس"، ص 433.

[2] – المرجع نفسه، ص 485.

[5] - شوقي ضيف ، عصر الدول والامارات "الجزائر ..."، ص 236.

وهذا رأي الكثير من النقاد مثلا يقول عبد المنعم خفاجي: " **إذا قرأنا رسالة لكاتب في هذا العصر رأينا-في الكثير الغالب – أنها لا تشمل على معنى رائع أو فكر بديع، لأن صاحبها كان يفكر في الألفاظ المزخرفة أولا ليؤلف منها المعاني ثانيا، وفي هذا مناقضة لأصل الفطرة، لذلك جاء الكلام متكلف ضعيفا**[1].

إن هذه الصنعة والضعف شغلت نقاد وأدباء العصر مثلا النويري في كتابه نهاية الأرب، وكذا صبح الأعشى للقلقشندي، وحتى ابن خلدون في مقدمته، منهم من أرجع السبب إلى تولي أمورها المدعين، والبعض رده الى دخول العجمة، وعموما حصرها عبد المنعم خفاجي في جملة أسباب تبدوو منطقية إلى حد بعيد، ومن أهمها كما قال ضعف الملكات والمواهب وضعف الثقافة الأدبية والعزلة التي اضطر الأدباء لمعايشتها بسبب ظروف العصر، الى جانب فساد الذوق والتبعية التي اختارها البعض كمنهج في كتاباته النثرية خاصة ممن كانوا يهيمون بطريقة القاضي الفاضل، والذين كانوا بعيدين عن اي رغبة في التجديد او الابتكار[2].

مقياس: أدب عصر الضعف

[1] - محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في مصر "العصر المملوكي والعثماني، ص96.

[2] - أنظر محمد عبد المنعم خفاجي، المرجع نفسه، ص97.-100

المقيـــاس: أدب عصر الضعف (السنة الأولى ماستر، تخصص: الأدب العربي الحديث ومعاصر)

المحاضرة التاسعة

الخطابة في عصر الضعف

لم تعد الخطابة كما كانت عليه في العصور السابقة تأتي على لسان الأمراء وذوي الأحزاب السياسية لتعلن عن مذهبها وعقائدها، إذ **"لم تكن هناك أحزاب لتوقيد الخطابة السياسية ولا حركات مذهبية عقلية [1]**، لذا خفت هذا النوع إلى حد القلة ولم يعد لها انصار إلا في بعض المناطق، ويمكن أن نقف على خطبة الحاكم بأمر الله ولي الخلافة بمصر (ت701) يقول **" الحمد لله الذي أقام لبني العباس ركنا وظهيرا، وجعل من لدنه سلطانا نصيرا، أحمده على السراء والضراء ، أشهد ان لا اله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله ،.. أيها الناس أعلموا أن الامامة فرض من فروض الاسلام والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم الجهاد الا باجتماع كلمة العباد ...فشمروا ساق الاجتهاد في احياء فرض الجهاد، فاتقوا الله ما استطعتم وأسمعوا وأطيعوا، وأنفقوا خير لأنفسكم" [2]**. فالخطبة رغم ولاء صاحبها لدولة بني العباس إلا أن طابعها الغالب يمكن عده دينيا، بسبب الظروف التي حاصرت المسلمين حينئذ من الصليبين والتتار.

إن الخطب التي انتشرت في هذا العصر، معروف عنها البساطة وذلك لعدم قدرة الخطباء على الارتجال وفقدان مقدرتهم البيانية، لذا لجأ البعض منهم أو أغلبهم إلى كتابتها مسبقا وحفظها أو قراءتها على الورق. بل إن معظم الخطاب مالوا إلى اقتباس خطب غيرهم في المناسبات المختلفة ، وكانت تلقى بدون أي حرج على الناس، وهي مليئة بالاقتباسات القرآنية وبالآيات وبالحديث الشريف وبأقوال الحكماء، لكنها احتفظت بنفس عناصرها البنائية والشكلية التي كانت في صدر الاسلام من الحمد والصلاة على النبي الكريم والاستشهاد بالنص القرآني وبالحديث وأبيات الشعر وكذا الاسراف في المؤثرات البلاغية والبديع كما سنرى بعد قليل.

أما بالنسبة للعهد العثماني حيث لغة التخاطب هي اللغة التركية، فإن الخطب لم تتخذ شكلا محددا لها مسبقا، بل كانت تقال حسب مرجعيات الكاتب وحسب المقام الذي قيلت فيه، وأغلبهم كان يعمد إلى التقليد عن سابقيهم خوفا من الزلل واللحن. ومن الناحية الفنية

---

[1] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص209

[2] - عمر فروخ، تاريخ الأدب الأدب العربي " من مطلع القرن الخامس الى الفتح العثماني، ص617.

فقد لوحظ الميل إلى الجمل القصيرة، وتوظيف السجع والجناس خاصة في أواخر الجمل للحفاظ على أنغامها التأثيرية، والحرص على البساطة في معاني الخطب وعدم تعقيدها.

1- الخطب الدينية

منطقي جدا أن تظل الخطب الدينية شائعة في بلاد المسلمين لطبيعتها الدينية القائمة على نشر تعليم الدين الاسلامي وشرح مضامين الآيات والتذكير بأحكام الله سبحانه وتعإلى والتحذير من الفتن والظلم والشرور، والمنطق أكثر أن هذا العصر معروف عنه شدة الابتلاءات والمصائب الملمة بالأمة الاسلامية شرقا وغربا بسبب الأعداء المتربصين بها من الخارج والداخل. لذا شاعت الخطابة الدينية لسبب بسيط وهو التصاق الناس في هذا العصر بالدين فرارا من الوضع العام المتوتر ، فقد تم اعتبار الدين المخلص من مختلف الهموم الموجودة في المجتمع[1]. إذن توسعت الخطابة الدينية في هذا العصر بسبب شعور المسلمين بالضعف أمام الهجوم المستمر للصلبيين ورغبتهم في استعادة الأمجاد السابقة بالحث على ضرورة الوقوف ضد هذه الجحافل الصليبية وتذكير المسلم بالآخرة.

ويذكر بعض المؤلفين أن الخطب الدينية في عصر الضعف كانت "**تتميز بأسلوبها التقليدي الخاص، فهي تبدأ بحمد الله، ويشرع الخطيب في القاء الخطبة الأولى موجها كلامه إلى الناس، ثم يجلس ليستريح بعض الوقت، ويتأهب ليقوم بعد قليل للخطبة الثانية كما جرت العادة ويدعو بعد ذلك للخليفة أولا وللمك او السلطان ثانيا ثم يختتم خطبته بالدعاء لسائر المسلمين**"[2]. ومن الخطباء محي الدين بن الزكي(ت698ه) قاضي دمشق حينها الذي ألقى أول خطبة بالمسجد الأقصى وقد أعجب بها الحاضرون منهم السلطان، ومما قال: **فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون...الحمد لله معز الاسلام بنصره، مذل الشرك بقهره ومصروف الامور بأمره ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره.... أيها الناس ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا لمن يسره الله على ايدكم من استرداد هذه الضالة من الأمة وردها إلى مقرها في الاسلام..... "**[3]. تعد الخطبة رائعة من حيث الإجادة والطول والتحفيز والكلام المرسل البليغ والتقسيم المنطقي ومراعاة النظير. بل قيل إنه تمكن من تحديد قواعد الخطابة في عصره بعدما خلصها من لبس السواد على المنبر ودق السيف واجتنب الثناء على الملوك واكتفى فقط بالدعاء لهم.

---

[1] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص209

[2] - وفات الأعيان، ج1، ص468 نقلا عن عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص723.

[3] - عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ص724./725.

في مصر شاعت الكثير من المدارس والطرق كالشاذلية والبرهامية والأحمدية وغيرها وكان لها أتباعها من الوعاظ ممن تفلوا بنقل الطرق الصوفية إلى الناس، وهي مليئة بالابتهالات والأوراد والمناجاة التي كانت تقلى في منابرهم. مما ذكر في هذا المجال قول شمس الدين بن اللبان أحد أتباع الطريقة الشاذلية: " **الهي جلت عظمتك ان يعصيك عاص، أو ينساك ناس، ولكن أوحيت روح آوامرك في أسرار الكائنات، فذكرك الناس بنسيانه وأطاعك العاصي بعصيانه، وإن من شيء إلا يسبح بحمدك إن عصى داعي ايمانه، فقد أطاع دعي سلطانك.**[1].

وقد نال الوعظ اهتما بالغ نظرا لطبيعة العصر المضطربة والفتن الكثيرة المنتشرة، فقد كانت مهيئة لهداية النفوس والحديث عن الحق والباط، وقد كانوا يقومون بها "**من مرت ألسنتهم على القول البليغ، وعرفوا كيف يستملون القلوب إليهم، وكان بعض سلاطين هذا العصر يعرفون أثرهم في الشعب، فيقربهم اليه أو يغدق عليهم المنح والهبات**[2].

وفي المقابل امتلأت مساجد مكة والمدينة بالوعظ والارشاد، مقدمين المحاضرات ومرشدين الناس إلى أسرار الدين الحنيف، نجد منهم **أبو الغيث بن جميل** الملقب بشمس الشموس، و مزدهرا في اليمن وحضرموت وفي الحجاز متخللا انواع كثيرة من الفنون النثرية ولم يقتصر على الخطب بل ظهر في الرسائل والوصايا، مثل خطابة **حمزة قائد عبد الله بن يحي الكندى** اأا ناصر بن مرشد سنة 1024، يقول فيها: " **بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد العمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الديار، وجعلهم أغراضا لسهام الأقدار، وكّل بهم أمراض تزعجهم على القار، وتجري منهم مجرى الدماء في الستار.**".[3].

كانت الخطابة في الأندلس وليدة الصراعات القبلية في العهد الأموي في البداية، وأيضا سميت برفيقة الجهاد التي وقفت إلى جانب جيش الفتح الاسلامي تحث الجنود على القتال والصبر، والذاكرة الأدبية والتاريخية تحفظ لنا خطبة طارق بن زياد التي ساعدت على تثبيت النص في أرض غريبة على الفاتحين، وكانت الخطب الحربية والحماسية قريبة من نفسية السامع واضحة المعنى، خالية من انواع التكلف والجناس.

وسرعان ما تعددت أغراضها وبواعثها لترافق الحياة العامة في مجالاتها وتدخل إلى الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية، وكانت مظهرا من مظاهر إقامة الشرائع الدينية

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، مصر، ص 467.

[2] - أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية في مصر والشام، ص381

[3] - القلقشندي، صبح الأعشى 343/14 عن شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة العربية...ص 256.

المختلفة وكذا صدى للأحداث السياسية الكبرى القائمة. ومنها خطب **لأبي المطرف بن عميرة** والذي كان له فصول وعظية ومما قاله: "يا **أعمى الهوى غاب عنك وضح النهار طالت غيبتك، فأي يوم تكون في الزوار العمر قد مضى، ولم يبق إلا القليل وأن تعيش بالمنى والتعليل"**[1]. واشتهر من بعده ابن الزيات الكلاعي(728ه) وله كتاب بعنوان **"شذور الذهب في ضروب الخطب"**، وهي أيضا من الخطب الوعظية، ومما قاله: **"وقد نصحتم لو كنتم تتعقلون، وهيديتم لوكنتم تعلمون، ونصرتم لو كنت تبصرون، وذكرتم لو كنتم تذكرون وظهرت لكم حقيقة تستركم"** [2]. فمع سقوط الدويلات الأندلسية بدأت الخطابة تميل نحو التنميق والصنعة بدورها كحال الأدب بشكل عام، واتجهت نحو المواعظ الدينية والإرشادات تزامنا مع اشتداد الحملات الصليبية التي كانت تطرد المسلمين من الأندلس، ولكن لم تحفظ لنا الكتب سوى نفر يسير في آواخر هذه الدولة.

تحدث **شوقي ضيف** في كتابه تاريخ الأدب العربي عن مجموعة من الخطب والمواعظ التي ظهرت في الجزائر والتي كانت تلقى في عواصمها سواء في بجاية في القرون الأولى او في تلمسان مع نهاية القرن الخامس هجري مثل أبي عبد الله محمد بن أحمد الحجام 614ه الذي كان خطيب جامع تلمسان الأعظم، وسعيد العقباني(811ه)، و مصطفى بن عبد الله البوني في القرن الحادي عشر وقد كان واعظا في مدينة الجزائر العاصمة ، مؤكدا أن هناك تراثا مهما فقدته الجزائر بعدم تدوينها له ولم تتمكن الروايات من بيان مواضعها بشكل دقيق[3].

كما أكد ضياع تلك الخطب في ليبيا بسبب عدم وجود أي عاصمة ولا دولة بها ذات أهمية لتعنى بالخطباء وبالأدباء كما هو الشأن بالنسبة لتونس التي كان لجامع القيروان سببا في شيوع الخطب الحربية منذ الفتح الاسلامي، إلى جانب جامع الزيتونة الذي عمل بها كبار الكتاب، منهم ابن خلدون الذي ألقى به بعض الخطب الطويلة (سنة786ه) وكانت خطبه طويلة لها قواعد واضحة كالحديث عن أصول المعرفة وإظهارها وأهمية الكتب والعلماء واستحضار كبار المؤلفين من مختلف البقاع والصلاة على النبي الكريم والثناء على الخليفة وخاصة السلطان برقوق في تونس 305/304 تونس صقلية وليبيا..

2-الخطب الحربية

كثرت الأخبار التاريخية حول المجازر التي استهدفت بيوت المسلمين، وتلك التنكيلات بأجسادهم والتي عملت بهم المنابر في الشوارع والطرقات، أو تلك الحملات

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات "الأندلس"، 488

[2] - المرجع نفسه، 479.

[3] - أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر .....، ص227/225

الشرسة والمتواصلة على الأمة، وتكالب الغرباء عليها، وقد عدت سببا في توسع الخطب الحربية، وامتدت امتداد الحروب والمعارك من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي، ومن المرجح أن يكون أصحاب هذه الخطب معظمهم ممن شاركوا في الحروب، نظرا لتميز هذه الخطب من الناحية الأسلوبية بالارتجالية والتلقائية في اختيار الكلمات وسرعة نقل الأحداث وكذا قصرها وبساطتها.

وغالبا ما كانت تصدر هذه الخطب من الأعيان والملوك، كما هو الحال بالنسبة لصلاح الدين الأيوبي والملك قطز، ومنهم قضاة كشرف الدين الغزاري خاطب الجامع الأموي وابن المنير الاسكندراني قاضي الاسكندرية، ومما قيل خطبة للقاضي **بهاء الدين** الذي ألقى خطبة على جنوده يأمرهم بالانتقال إلى مكان آخر قائلا: **" باسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله، أعلموا أن هذا عدو الله وعدوكم، قد نزل ببلدنا، ووطئ أرض الاسلام، وقد لاحت لوائح النصر عليهم، إن شاء الله تعالى ، وقد بقي العدو في هذا الجمع اليسير، ولابد من الاهتمام بقلعته، والله قد أوجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءها نجدة ننتظرها سوى من الملك العادل...الخ"**[1].

كان للخطب الحربية دورا مهما في تحفيز الجنود على القتال وتوسيع دائرة الفتوحات الاسلامية والدعوة إلى الاقبال على الدين الجديد، وظلت طوال الحقب الاسلامية تنير العقول وتقرب القلوب وتحفز النفوس على الطاعة واللجوء إلى الخالق، في زمن الأيوبيين يلقانا ابراهيم بن منصور(596ه) إمام جامع عمرو بن العاص، وازداد دورها أكثر في العصر التتاري من خلال التركيز على ضرورة الوقوف ضد أعداء الدولة خاصة بعدما انتشر القتل واستبيحت الأعراض ودمرت العواصم الاسلامية تحت الغزو الصليبي والمغولي. ولم تكن مثل الخطب تنتظر أياما ومناسبات معينة، بل كانت تقترن بظروف العصر،إذ يمكن أن تكون في أي يوم لدفع المسلمين إلى بذل المزيد والتصدي لهجمات العدو المدمرة.

من الناحية الفنية يتحدث بعض المؤلفين عن بناء يتكون من أربعة أقسام ، يبدأ فيها الخطيب بالثناء والحمد لله تعإلى على نعمه وشكره، ويستخدم الكثير من الآيات التي تظهر هذا المنحى الأسلوبي، وفي بعض الأحيان قد لا يأتي الخطيب بكلمة واحدة من ابداعه، وانما هي تلاوة للذكر الحكيم وترتيل للآيات التي تتضمن معاني الحمد والرضى، وقد يرفقه بالدعاء ولكن هذا القسم لم يكن بنفش المنحى عند كافة الخطباء منهم من يقتصر أو يطيل أو يبتدع المعاني. أما القسم الثاني فكانت تبتدئ بكلمة **"أيها الناس"**، ويقال إنها الخطبة الأولى والتي توجه إلى عامة الناس كي تعرض قضاياهم ومشاكلهم

[1] - ابن واصل، مجدد الكروب، ج2، ص304 عن عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص731..

وأحوالهم العامة، أما القسم الثالث فهو للخطبة الثانية بعد استراحة الخطيب وهي في الغالب تكون أكثر توضيحا وأقل طولا، لينهي خطبيته بالدعاء لقائمي على الدولة من الأعلى ويتدرج حسب المراتب إلى أن يصل إلى عامة الناس فيدعوا للحضور ولكل المسلمين.

واشتهر في حلب بنو العديم ممن كانوا يحثون الناس على الجهاد والصبر أيام الصليبين ومنهم ابن نجا خطيب دمشق، ثم أصبح يخطب ايضا بجامع القرافة بمصر بعدما انتقل للعيش فيها، وكثيرا ما يحسن الحديث ويلقى كلامه القبول في نفوس سامعيه، وهناك المهذب الدمشقي ويوسف بن قزوغلي وابن الجوزي أكبر وعاظ دمشق في القرن 7ه ، فقد ظل يعظ نحو أكثر من نصف قرن الناس، ومما قاله حين دخل على الملك الأشرف: **"أعلموا أن أفضل العبادات البدنية الصلاة، وهي صلة بين العبد وربه، فعليكم بمقاصد الصلاة تصنيف ابن عبد السلام وعوها، واحفظوها وعلموها أولادكم ومن يعز عليكم"**[1]. ويضيف الرواة ناصر الدين ابن البازري (ت823ه) الذي قيل عنه انه كان اماما بالجامع الأموي وكان الناس تحب سماعه وتحتشد لتلقي خطبه[2].

3-الخطب العلمية

تتحدث الكتب عن نوع آخر من الخطب شاع في هذا العصر وهي **الخطب التدريسية** وقد نسميها أيضا الخطب العلمية التي كانت تلقى في المساجد ومراكز التعليم المختلفة على الطلاب وراغبي العلم، وكانت تناقش القضايا الفكرية والعلمية والمعرفية بغية تبسيطها ونقلها إلى المستمع. وتتميز هذه الخطب باستخدام المصطلحات العلمية والمعرفية الحديثة، على نحو ما نجد عند **تقي الدين أبو الفتح محمد بن عبد اللطيف السكي** الذي قال لما عين مدرسا بالمدرسة الركنية بمصر (744ه):**" الحمد لله ناصر الملك للدين الحنيف وممضي عزائمه ومشيد أركانه القائم بالشرع المحمدي، ومقوي دعائمه وأشهد أن لا الله إلا الله شهادة يعينها اليقين بخوافيه، وأشهد أن محمدا رسول الله أرسله والكفر قد أطل بتعاضده: أما بعد : فإن غريب الدار ولو ناط الثريا، فيكفي أن يقال له غريب..وبعيد المزار ولو تهيأ له ما تهيأ فما له في الراحة نصيب..** [3].

تتخذ هذه الخطب مسار الوعظ والارشاد، وتموج كتب الأدب بهذا النوع ، سجلت لغايات مختلفة، ولنا مثال **لابن منير الاسكندراني** والذي خطب في الناس لما استولى التتار على الشام: **" الحمد لله الذي يرحم العيون إذا دمعت، والقلوب إذا خشعت،**

---

[1] - طبقات الشافعية، ج5، ص98 نقلا عن أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية في مصر والشام، ص397.

[2] - أنظر شرقي ضيف، عصر الدول والامارات الشام، ص327/326...

[3] - السبكي، طبقات الشافعية الكبرى 180/9 عن عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ص617.

الموجود إذا الأسباب انقطعت والمقصود إذا الأبواب امتنعت، فسبحان من وسعت رحمته كل شيئ وحق لها اذا وسعت [1].منها ما كان يقال في ظروف استثنائية، والمناسبات المختلفة كالكسوف والاستسقاء،

وأيضا يجب أن لا ننسى تلك **الخطب التوضيحية** التي تدرج في مقدمات الكتب والتي يرمي بها الكاتب إلى تقديم موضوع كتابه وتبسيطه إلى القارئ، ووفيها يتحدث عن طريقته في التقسيم المنهجي والموضوعاتي، وغايته من تأليفه ودوافعه أيضا، وخلال ذلك يركز كل طاقته الابداعية في تلك الخطب التمهيدية والتي تظهر مقدرته البلاغية والتأليفية والفكرية، ونزرا لاتساع التأليف في هذا العصر وشموليته لباقي المعارف الأخرى، فقد كان لهذه الخطب مكانة خاصة وسط المؤلفين. يتم فيها الميل نحو البلاغة والتكثيف والايجاز وتنويع أسلوبه الأدبي. ولنا نموذجا لـــ ابن غانم المقدسي (ت678ه) أيام المماليك، وله كتاب يقول في مقدمته: **لقد وضعت كتابي هذا مترجما عما استفدته من الحيوان برمزه، والجماد بغمزه، ما خاطبتني به الأزاهير بلسان حالها والشحارير عن مقار ارتحالها، وسميته كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار، وجعلته موعظا لأهل الاعتبار وتذكرة لذوي الأبصار والاستبصار..** [2].

واشتهر ابن المنير الاسكندري (ت683 ه) وابن دقيق العيد (ت 702ه) الذي كان قاضي القضاة في جميع ديار مصر حينئذ ومما قاله خطبة أوردها السيوطي في كتابه: **"الحمد لله، يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور، ويمهل حتى يلبس الاهمال بالاهمال على المغرور، ونذكره بايام الله وان يوم عند ربك كألف سنة مما تعدون ونحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون، عسى الله ان يرشده بهذا التذكار وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار...** [3].

4-الخطب الاجتماعية

كان هذا النوع شائعا في العرب منذ الجاهلية، نظرا لكثرة المناسبات الاجتماعية التي تجمعهم عبر الزواج أو السمر والمناظرات المختلفة بينهم، تكاد تهيمن **خطب** زواج طريفة بين بعض القبائل في شبه الجزيرة العربية ، تلك التي ظلت تحتفظ في عقد الزواج بهذا التقليد القديم وهي خطب منمقة يشيع فيها السجع، ولنا مثال يعود إلى تاج الدين بن

---

[1] - الذهني، تاريخ الاسلام، 491/15 عن عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ص619.

[2] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ص332.

[3] - انظر ابن المنير، فوات الوفيات، 132/1 نقلا عن شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، مصر ، 463.

أحمد يقول:" **إن الزواج جنة تتقي بها الفتنة، وجنة يلقى على متفيئ ظلها ، أسكن أنت وزوجك الجنة، تثمر رياضة الرحمة بين الزوجين والوداد"**[1].

يتم في هذا النوع من الخطب تبيان مناقب الخاطب والعريس، وكذا تعداد خصاله الأخلاقية ومنزلته وسط قومه دون ان ننسى الاشادة بالعروس، وغالبا ما يتم بيان فضل هذا الزواج والسعادة المرجوة من وراءه خصوصا إن كانت بين كبار القوم، ممن كانت لديهم سلطة وقد اتسعت مع اتساع بقاع الامة الاسلامية واختلاطهم بباقي الأجناس البشرية، حيث كانت تعلن زواج الخليفة على جواريه أو من أميرة أو ابنة وزير أو ما شابه. ونستحضر هنا خطبة صدرت عن **محي الدين بن عبد الظاهر** كتبها للملك السعيد ناصر الدين محمد بركة بن الظاهر بيرس على ابنة الأمير سيف الدين قلاوون ومما قاله: **"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب مبارك تحاسدت رماح الحظ وأقلام الخط على تحريره، وتنافست مطالع النوار ومشارف الأنوار على نظم تطوره"**[2]. وتعد من الخطب المسبقة تحضيرها، وهذا يعني أنها بعيدة عن الارتجال والسمات الفنية فيها واضحة بسبب التنميق المبالغ فيه.

لقد ازدهرت خاصة في العهد المملوكي لاستقرار الذي نعم به العصر، وقد كانت ترافق المجتمع في مناسباته المختلفة من الزواج والمواليد والختمات منها ما كتبها الملوك لابائهم أو لابنائهم، وبين الرؤساء عامة، وقد عني بها **ابن الوردي** الذي كان يميل إلى استخدام الالقاب التشريفية والآيات القرآنية، ومما قاله: **"الحمد لله الذي أطلع في منازل الشرف شموسا مصونة البهاء والضياء، وابتدع لشرف شابه البديع درة مكنونة في سحر الحياء والحياة ، وبعد أن أولى ما بادر اليه أولوا الأحلام وتنافس فيه الكرام الأبناء وأبناء الكرام، ما كان لتكبير الأمة متضمنا ولفصيلة العاجل والأجل نافعا شيئا ، وهي سنة النكاح التي عظمت بها المنة وخصوصا بنات العم...** [3]

ويمكن ادراج خطب التأبين في هذا النوع، إذ كانت تعلن الحزن والأسى على فقيد خصوصا إن كان من ذوي السلطة أو من الشخصيات التي لعبت دورا هاما في تاريخ الأمة الاسلامية، ويتم فيها التذكير بمناقبه، ويتحدث **أحمد بدوي** في كتابه عن بعض الخصائص التي تميزت بها في هذا العصر، وهي تتحدد في التنأنق في اختيار الألفاظ والعبارات، وهو أمر لا يتعلق فقط بالخطابة كما لاحظنا وانما كان طابع العصر لذا منطقي جدا أن تتزين الخطب بأبهى الكلمات وأجود العبارات كي تؤثر في النفوس وتستميل القلوب، ولكن الأمر هنا يزداد عن حده لتظهر حلى واضحة تثقل المعنى بألوانها الزاهية.

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزيرة...ص202.

[2] - المرجع نفسه، ص224.

[3] - محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج2 دط، ص16

كما تحدث عن خاصية التزام السجع وهي قاعدة كان يتبعها الأدباء والخطباء، والتزام الفواصل لتظهر النفس القصير، ومال الخطباء إلى الاقتباس من القران الكريم بكثرة إلى حد أنها كانت تأتي بدون تمهيد ويدون شرح ولا اظهار لمعانيها، تزين الجمل والفقرات وتتواتر آية بعد آية سواء في المقدمات أو في صلب الموضوع، اما الاسشهاد بالشعر فكان وسيلة كما لاحظنا في بداية المحاضرات لصقل اللسان وادخل الفصاحة إلى اللغة لمحابهة اللحن، ولكن ازدادت عدد الأبيات المستشهد بها[1].

.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية مصر والشام، ط2، نهضة مصر للطابعة والنشر، 1979

[1] - أنظر أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحملات الصليبية في مصر والشام، ص387.

2. أحمد عبد الرزاق، المرأة في مصر المملوكية،دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999
3. بيومي السباعي، تاريخ الأدب العربي بمصر والشام على عهد المماليك والعثمانين، دط، مطبعة العلوم بشارع الخليج، الامارات، 1947
4. حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، الجزء الرابع، الأدب في المغرب والأندلس منذ الفتح الاسلامي إلى آواخر عصر ملوك الطوائف، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1984
5. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات(الجزيرة، العراق، ايران)، ط2، دار المعارف/مصر،1980.
6. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الشام، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1990
7. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، (ليبيا، تونس،صقلية) دط، دار المعارف/مصر ،1992.
8. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والامارات، الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان)، ط1، دار المعارف/مصر ،1995.
9. عطية القوصي، تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربي حتى الفتح العثماني(20ه-922ه)، دط، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1997
10. عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي " من مطلع القرن الخامس هجري إلى الفتح العثماني"، ج3، ط5، دار العلم للملايين، بيروت 1989.
11. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، الأدب في المغرب والأندلس، من اوائل القرن السابع الى أواسط القرن العاشر، ط1، دار العلم للملايين، 1983.
12. عمر موسا باشا، الأدب في بلاد الشام في عصر الزنكيين والأيوبين والمماليك، ط2 المكتبة العباسية، دمشق 1972
13. عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربي، العصر العثماني، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط1، 1989
14. فوزي جرجس، دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي، تقديم جلال السيد، دط، عين الشمس/مصر، 1958.
15. فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول"قضايا المجتمع والفن"، دط، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية/مصر، 1993.
16. محمود شاكر، التاريخ الاسلامي، ج7، العهد العثماني، ط4، المكتب الاسلامي، بيروت، 2000 .
17. محمود محمد الحويري، مصر في العصور الوسطى، ط1، عين للبحوث والدراسات ، الجيزة/مصر، 1996،

18. محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني، دط، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، 1984
19. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، دط، منشاة المعارف، الاسكندرية، 1997
20. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، ج1، منشأة المعارف، مصر، 1970.
21. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج2، دار المعارف، مصر، 1971
22. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي ج3، دط، دار المعارف، مصر، 1972.
23. محمد محمود سالم، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، ط1، منشورات ابن كثير، بيروت، 1999،
24. مجدي محمد سمش الدين، فنون أندلسية في الأدب العامي المملوكي، ج1، د1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة/مصر، 2004
25. مرسى الصباغ، قراءة جديدة في الشعر الشعبي العربي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، 2002،
26. نبيل خالد أبو علي، الأدب العربي بين العصرين المملوكي والعثماني، دار مقداد للطباعة، غزة، 2007
27. ياسين الأيوبي، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ط1، جروس برس للنشر، لبنان، 1995،